

فصل

في مسير السلطان إلى بلاد الشرق مرة ثانية

قال العماد: ثم إن السلطان عزم على المسير إلى حلب، وبلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج، ورغبوهم في الخروج إلى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم، فتوجه على سمت بعلبك وخيم بالبقاع، وكان قد واعد اسطول مصر أن يتجهز إلى بلاد الساحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت فبادره السلطان بعسكره جريدة قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أن أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسلب، وظفر من غنيمتها بما طلب، فأغار السلطان على تلك البلاد، ورجع وأعاد فرخشاها إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك ومنها إلى حمص، فخرج الفقيه المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدهان، وله في السلطان مدائح منها قصيدة أولها:

أعلمت بعدك وقفتي بالأجرع
ورضى طلولك عن دموعي الهمع
مطرت غضبا في منزليك فذاويا
في أربع ومؤججا في أضلع
هل يعلم المتحملون لنجعة
إن المنازل أخصبت من أدععي
دعني وما شاء التلذذ والأسى
واقصد بلومك من يطيعك أو يعي
لا قلب لي فأعني الملام فإنني
أودعته بالأمس عند مودعني
قل للبخيلة بالسلام تورعا
كيف استبحت دمعي ولم تتورعني
وبديعة الحسن التي في وجهها
دون الوجود عنايعة للمبدع

وما بال معتمر بربعك ذائبا
يقضي زيارته بغير تمتع

ومنها:

ووعدتني إن عدت عود وصالنا
هيهات ما أبقى إلى أن ترجعي
هل تسمحين بي بذل أيسر نائل
إن اشتكى وجدي إليك وتسمعي
فتيقني أي بحبك مغرم
ثم اصنعي ماشئت بي أن تصنعي

ومنها

عفى الريع الجون رباطا لما
أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيته سيل الغنى
من كف يوسف بالأدر الأنفع
بيدي فتى لو أن جود يمينه
للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فإذا تبسم قال يا جود اندفق
فيضا ويا سحب الندى لا تقلعي
وإذا تنمر قال يا أرض ارجفي
بالصاهلات ويا جبال تزعزعي
وإذا علا في المجد أعلى غاية
قالت له اللهم الجسم ترفع
كم وقفة لك في الوغى محمودة
أبدأ وكم جود حميد الموقع
والناس بعدك في المكارم والندى
رجلان إما سارق أو مدعي

قال: ثم رحل السلطان إلى حماة واستصحب معه ابن أخيه تقي الدين، فلما قرب من حلب أقبل مظفر الدين كوكبري بن علي كوجك صاحب حران حيثئذ فاجتمع بالسلطان، وسار في خدمته من جملة الأعوان، وأشار عليه أن يعبر الفرات ويجوز ماوراءها، ويترك حلب إلى ما بعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها، فاستصوب السلطان رأيه وعبر الفرات.

وقال القاضي ابن شداد: نزل السلطان على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، فأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفرات، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين بن زين الدين، وكان صاحب حران، وكان قد استوحش من جانب الموصل، وخاف من مجاهد الدين فالتجأ إلى السلطان وعبر إليه قاطع الفرات وقوى عزمه على البلاد، وسهل أمرها عنده، فعبر الفرات وأخذ الرها والرقه ونصيبين وسروج، ثم شحن على الخابور وأقطعه.

وقال ابن أبي طي: في أول السنة أراد مظفر الدين بن زين الدين، وكان إليه شحنية حلب الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها، فلم يتمكن وظهر أمره، وبعد هذه الواقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد، وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيرها إلى عز الدين، وسلم عز الدين إليه حلب، فسار إليها ودخلها فخرج مظفر الدين عنها وصار إلى الفرات، فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار إلى خدمته واجتمع به على جباب التركمان، وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق، وتأخير أمر حلب، ففعل ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام، وأقام على تل خالد ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأرتقي فنزل إليه وقبل الأرض بين يديه، وسأله الصعود إلى قلعة البيرة، فأجابته وقدم له مفاتيح القلعة، فردها إليه ووعدته باستخلاص

ماكان صاحب ماردين رده عليه، ورحل السلطان إلى سروج فنزل إليه صاحبها ابن مالك مستأمنًا، فأعاده إلى بلده، وراسل صاحب ماردين في رد ماكان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل، ثم أخذ الرها ثم الرقة ثم سلم الرها إلى ابن زين الدين، والرقة إلى صاحب الرها لأنه سأل أن يكون في خدمة السلطان.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه يعلمه بالحال وفي آخره: «ولتتعجل بحمل ما هناك من الأموال فكلما فتحت البلاد أبوابها، قد فتحت المطاعم أفواهاها، واستوعبت الخزائن إخراجًا وإنفاقًا، واستنفدت الحواصل إعطاء وإطلاقًا، وقدمنا على بحر لا يسده إلا بحر، وعلى أيدٍ إن كان بها الغنى ففي أنفسها الفقر».

ومن كتاب آخر إلى العادل: «يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق، وكثرة الخرج الذي اشترك فيه أهل الآفاق، وإنه متى نصبت المواد وقفت الأمور التي قد شارفت نهايتها، وتفرقت الجموع التي تناذرت الأعداء نكايتها، ومادون تملك البلاد إلا الوصول إليها والنزول عليها».

قال العماد: وقال مظفر الدين للسلطان: مازلت شوقًا إليك في حران حران، وإلى السري من ورد خدمتك ظمآن، وهي لك مبدولة وبأوليائك من أهل الدين والدنيا مأهولة، والرها لا يعسر أمرها، والرقة لرقك وبعض حقك، والخابور في انتظار خبرك، ودارا دارك، ونصيبين نصيبك، وملك الموصل موصلك إلى الملك، وما هذا أوان الونا فادن إلينا، وكل بعيد قد دنا.

قال: ووصل البحر إلى الفرات وخيم عليها من غربي البيرة، ومد الجسر، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بالسلطان تخلى عنها، فأعاد إليها صاحبها شهاب

الدين محمد بن الياس الأرتقي، وكتب السلطان بالمثال الفاضلي إلى الديوان عند عبور الفرات كتابا فائقا طويلا يقول فيه: «خدم الخادم متوالية إلى الأبواب الشريفة خلد الله سلطانها شارحا أحواله، ومعتدا بها من صالح أعماله، ومتوقعا من الأجوبة عنها ما يبيء له من أمره رشدا، ويفرق الأعداء إذ كادوا يكونون عليه لبداء، فإن الآراء الشريفة لو لم تفصح عنها الإنشاءات، وتتضمنها الإجابات والإبتداءات لأفصحت عنها موالة الخادم التي استفتحت الدولة بعقائل الفتوح قبل خطبتها، وردت الأسماء الشريفة إلى أوطانها من المنابر، بعد طول غربتها، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل مهاجر ما هاجر إليه، ونية المرء ثوبه، فلا يلبس إلا ما خلعتة النية عليه، وكتاب الخادم الآن من البيرة بعدما قطع الفرات، وكان من لا تقرب عليه العزائم ما هو بعيد، ولا يلقى السمع وهو شهيد، يظن أن ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده، وإنه ينسى عزيمة رأيه إذ ذكر طول مدته، وهول مده، وكيف ما كان هذا المخرج المخرج فقد أحسنت إلى الخادم إساءته إليه، وقربه من محل دار السلام، بل الاسلام، فما أكثر ما قال: السلام عليه، واستشرف جنانه من جنابه أمنا وذعرا أوجبتها الموالة والمهابة، وطالعت عينه أنواء وأنوارا تنسب إلى بركتها كل سحابة، وكاد ينزل عن السروج والأكوار، ويقبل الثرى لأجل شرف الجوار، ويستنفد غلته ماء الفرات، لأنه يمر بتلك الديار، ويقرأ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الأخطار، ومن عذوبته عذوبة ذلك الإنعام الذي هو أعم وأغمر للأقطار من القطار، وتنور دار السلام من منزلته فأدناه النظر العالي، وأسلفته آماله حوز الفوز بما قربه نجيا من قربه، والآمال أمالي، والله تعالى يشرف أرضا هو واطئها ويرعى سرحا هو كالثما، ويسعد به أمة هو بارها بطاعة من هو بارئها، ولما تحقق الخادم أن المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر، ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر، وخصمتهم خطوط الأيدي المتمسكة بعصم الكوافر، وعقدوا معهم عقدا شهده من هو حاضر، ونقله إلى من

سمعه من هو ناظره، وكان عقدهم إحدى عشرة سنة، والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار، على أن تسلم ثغور المسلمين إلى الكفار، ومنها بانياس، وشقيف تيرون، وحبس جلدك، وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم وفي كل بلد يسترجعون من الخادم بمساعدة الفرنج، ولما تم لهم هذا العقد، وحملوا إلى الفرنج ذلك النقد، ظنوا أن الحق يجادله الباطل فيدحضه، وأن يد الكفر تنبسط إلى الاسلام فتقبضه، وأن الخادم لا يمكنه أن يتوجه إليهم إلا أن يكون للفرنج سلماً، ولا يستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قسماً وإبائهم قسماً، وعملوا على هذا الوهم، وبنوا على هذا الحكم، استنهضوا الفرنج على تشاقل الخطوة، واستخرجوهم على ما بهم من كلوم الغزوة بعد الغزوة، فتحاملت أرجل الكفار على ظلعها، وخرجت على طمعها إلى فرعها، وانفقت في رجالها مالا حملوه إليهم جماً، وجرت إلى الاسلام جيشاً جهزه من يدعي الاسلام لفظاً، ويفارقه حكماً، وتواعد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يوصل المساءة إلى الخادم، ولم ينظروا للاسلام في العواقب، فوصل المواصلة إلى نصيبين مجدين محفلين، وحركوا الفرنج للخروج إلى الشام متطرفين ومتوغلين، فلا جرم أن أمراء جانيهم، وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين، ولا الخروج عن إمرة الموحدين، فأرضوا الله بإسخطهم، واشفقوا على دينهم اشفاقاً دل على تحرزهم له واحتياطهم، فاتبعوا الحق وسلكوا سبيله، ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)^(١١) فاستعان الخادم عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه، ولما رأى أنهم قد أملوا النصر من أرضهم أمله من سمائه، فرتب الخادم في رأس الماء بدمشق بإزاء الفرنج المملوك فرخشاه ابن أخيه، وأبقى عسكر الشام وحاميه فيه، واستنهض أخاه من مصر إلى ما يليه من بلاد الكفر فنهض، وقام الخادم بما أقامه له والله عز وجل بما فرض، وسار الخادم بالعسكر المصري إلى هذا الجانب الذي هو

الآن فيه، وكان أسره يكفيه، وتثاقل في الطريق انتظارا لأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويفرجوا عن الولاية أيدي اغتصابها، ويعتذروا إلى السيف بالسنة يشفق على رقابها، فأبوا إلا الإباء، ورأوا الملك إرثا ما ادعوا فيه تقليد الخلفاء بل الأباء، ولما قرب الخادم من الفرات وصل إليه صاحب حران ابن زين الدين علي كوجك، ومقدم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سروج، وصاحب البيرة، وكل بيده مفاتيح بلده، وأمامه أمان الخادم له قد استبدله من مقلده، ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جنائيات ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات، يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ، ويحثونه في المسير على الأغذاذ، ويشكون أنهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لا يسلك فيهم سننها، ولا يقتضى فيهم شرائعها وسننها، ونمى إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلزم الفريقين، ويعدل بها عن أقصد الطريقين ما يروع السامع، ويسمع الرائع، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم ان ادعوا تقليدا فقد نقضه كونهم ابتدعوا وماتبعوا ونقضوا، وما افترضوا ومثلوا بالحق وما امتثلوا، وأمروا بكف الأيدي وقد بسطوها، وبأخذ الأموال من حلها وقد خلطوها، وبرعاية أمة النبي صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها، وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعاها، والعهد وصايا وما الأولى بها من سمعها بل من وعاما، وأي عهد لمن لاعهد له بالطاعة، وأي ولاية لمأمور بأن يجمع أهل الفرقة ففرق أهل الجماعة، فالجندي توكل الأرض بأسسه ولاشيء بيده، والعامي يرفع إلى السماء استغاثة ما لا يمهل الله عليه، ولقد تعجب الخادم من إشغاف الأنفس الغنية إلا أنها فقيرة، والارتفاق بتلك الطعم الجليلة، وهي على الحقيقة الحقيرة (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوني بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) (١٢) الآية هذا إلى طامة أخرى لا تقرأ عليها الجنوب، ولا تدر عليها الحلوب، ولا ينام على

سهر بارقتها وإن كان الخلوب، وهو أن الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها، وبذلوا الطاعة لها، وقد أمروا بالامتناع منها، وهذا نص في الخلاف لا يدخله التأويل وقول قد أحاط به العلم فلا يختلجه التقويل، وكل صغيرة من هذه الكبائر، وكل واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولاية، ويجرح العدالة، ويسلب الرشد، ويثبت الضلالة، ويمضي نية الولي فيما هو له ماض، ويبعث عزمه فيقضي ما هو قاض، ويسخطه وكيف لا يسخط والمولى غير راض، ويغضبه بما لا عذر له المغتاض متغاض، وما أنهى الخادم مما اتصل به إلا الأوائل والأطراف، وما عول إلا على ما صححته النفس دون ما خيله الإرجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حظها من معدلة كان الزمان بها طويلا مطلقه، وأنشأها سبحانه إحسان كان بعيدا عليها هطلقه، فقد كفت الخواطر الشريفة ما كانت به على اهتمامها، كما يجب للأمة على إمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أمرها، وييده يجلب نفعها، ويجلي ضررها، وقد تجددت للدولة الشريفة قوة واستظهار، وبسطة واقتدار، وسيف به يناضل من سيء الجوار، ولسان يجادل به من يريد الدار، وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المصري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحله، وما غنمه من مراكبه وقوافله، وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطسة فرنجية، وخرج من فيها هاربا من القسطنطينية لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجها، فقتل منهم خمسون ألف فرنجي، وأفلتت منهم بطس منها هذه البطسة، وفيها رجال أكابر، ومقدمون لهم ذكر سائر، وغنم المجاهدون منهم ماملاً أيديهم من سبي وذخائر، (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) (١٣) وحازت القبضه من الأسارى ما يزيد على أربعمئة بعد من درج بالقتل.

فصل

قال العماد: ثم كاتب السلطان الملوك بالوفود للاتفاق، فمن جاء مستسلما سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار، فجاء رسول صاحب حصن كيفا بالإذعان، وهو نور الدين محمد بن قرا أرسلان، ثم رحل السلطان من البيرة ونزل على الرها وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فأذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة له إلى حران، ثم وصل السلطان إلى حران فرتبها وانفصل منها إلى الرقة وفيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان فأذعن أيضا وسلم ولم يوافق مراعاة لصاحبه، فأصلحها السلطان، ورحل منها إلى مشهد الرمان، ثم إلى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها، وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور وما نشر من العدل في البلاد التي فتحها، فافتتحت رأس عين ودورين وماكسين والشمسانية والغدين، والمجدل والحصين.

قال: وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنير إلى نصيبين فاستعصت قلعتها أياما ثم فتحت استسلاما، وولاه السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السمين، وولى الخابور جمال الدين خوشترين، ثم سرنا إلى الموصل، وقطعنا الأعمال بين النهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بلد، وأشرفنا على دجلة، وكنا أوردنا خيلنا في أشهر من تلك السنة نيل مصر والفرات ودجلة، ثم صممنا على قصد الموصل، فلما قربنا من الوصول كبرنا تكبير من ظفر بالسؤل، وتقدم السلطان في الأمراء ذوي الآراء، ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما، فنزل هو وراء البلد وتقي الدين من شرقيه، وأخوه تاج الملوك بوري عند باب العمادية، فحصلت المحاصرة والمضايقة، وتولى مجاهد الدين قايباز حفظ البلاد بأحسن تدبير، وكاتب الديوان العزيز في أن يشفع لهم إلى السلطان، فقدم في ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير في الشفاعة، فرحل

السلطان عنها في شعبان وقصد سنجار، وقدم أمامه تقي الدين.

وقال القاضي ابن شداد: كان نزول السلطان على الموصل في هذه الدفعة يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمان وسبعين، وكنت إذ ذاك بالموصل، فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل، مسرعا في دجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ، وكان في صحبته رسولا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه، وسير إلى بهلوان رسول من الموصل يستنجده، فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان، ثم أقام السلطان على الموصل أياما، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعها وما حوله من البلاد وإضعافه بطول الزمان، فرحل عنه ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين، وجماعة واشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عنوة، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى الموصل، وأعطاهما السلطان ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها إلى نصيبين.

وقال العماد: لما قصد السلطان سنجار نزل بأزنجان فوجد عسكرا من الموصل سائر إليها فأحاط به، وأخذ خيلهم، وعددهم وردهم إلى الموصل رجالة ووصل إلى سنجار، ومعه رسل دار الخلافة ونور الدين صاحب حصن كيفا، وكان في سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل، فامتنع من تسليمها فحوصر ورميت القلعة بالمنجنيق فانهدم منها ثلثة من السور، فوكل بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال، ثم جاءه الخبر ليلة أن الموكلين بحفظ تلك الثلثة نيام، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه، وكان فيهم جماعة من المقدمين والأعيان فلما أصبح صاحب سنجار أذعن، وسلم ورحل بأهله

وماله، ودخل السلطان القلعة، ورتبها وأمر بعمارتها، وولاهها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وكان السلطان يعتمد عليه، وأخته ابنة معين الدين كانت في حباله السلطان، وكان رؤساء سنجار بني يعقوب، فترك الرياسة فيهم، وولى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المظفر بن محمد ابن يعقوب، ثم رحل السلطان إلى نصيبين، فأقام بها لأن الأيام كانت باردة، ومنها ودع رسل دار الخلافة، وشكا أهل نصيبين من أميرها أبي الهيجاء السمين فاستصحبه السلطان معه، وسار إلى دارا وأميرها صمصام الدين بهرام الأرتقي، فتلقى السلطان بأحسن ملقى، فأكرمه وسار إلى حران، وأقام بها للاستراحة، وعاد كل إلى بلده، وسار تقي الدين إلى حماة، هذا والمواصلة في جد من جمع الجموع وابتغاء الغوائل للسلطان.

فصل

في وفاة فرخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب

قال العماد: وفي هذه السنة في جمادي الأولى توفي بدمشق الملك المنصور عز الدين فرخشاہ، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره الفرات، فأقر السلطان ولده الملك الأجد بهرامشاہ على بعلبك وأعمالها مكان أبيه، وأنفذ شمس الدين بن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها.

قال ابن أبي طي: كان فرخشاہ من أكرم الناس يدا وأطهرهم أخلاقا، وأسدهم رأيا، وأشجعهم قلبا، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده فاستدعى بجميع ما يحتاج الرجل إلى لبسه، وأمر له بغلام وبغلة مسرجة، وبألف دينار، وقال لبعض غلمانه اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له، ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب، وسأل الحمامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب، فتقدم إليه الغلام وأخبره بجميع ما صنعه عز الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا في كل شهر، فلبس الثياب، وخرج من الحمام وهو من أغنى الناس.

قال: وكان فرخشاہ ممدحا مدحه ابن سعدان بعدة قصائد من جملتها التي يقول فيها:

تخذ السابري لبدا وعودا —

زنان نابا والهندواني ظفرا —

أعجمي الأنساب قصرت الأعـ
رأب عنه سجعاً ونظماً ونثراً
هزمت كتبه الكتاب جفلاً
وأعادت دجنى الحوادث فجراً
فهو كالمأزني علماً وكالأحـ
نف حلماً وكالفـرزذق شعراً

قال: وكان فرخشاه مضافاً إلى شجاعته كونه عالماً مثقناً، كثير
الأدب، مطبوع النظم والنثر فمن شعره قوله:

أنـ في أسر السقـام
من هـوى هـذا الغلام
رشأت رشق عيننا
هـ فـؤادي بسهـام
كلما أرشفتني فـا
هـ على حـر الأوام
ذقت منه الشهد في الثلـ
ج المصفنـى في المدام

قلت: ونبغ ابنه الأجد أيضاً شاعراً، وكان السلطان كثير الإعتاد على
فرخشاه، وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إليه: « وصل كتابه
يتضمن خروج الفرنج ومادبره من الأحوال وأعدده من مكائد القتال، ،
ولسنا نستبعد أن يدني الله به كل بعيد من المراد، وأن يقلل بتدبيره تقلب
الذين كفروا في البلاد، وأن يجري على يده أول النحل الذي توعد به آخر
صاد ، وأن يصب به على المشركين (سوط عذاب إن ربك
لبالمرصاد) (١٤).

وقال العماد: كان عز الدين فرخشاه من أهل الفضل والتفضيل على
أهله، يغنى الكرام عن الابتذال بكرم بذله، ومن أخص خواصه، وذوي

اصطفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندي،
أوحد عصره، وشعاع شمسه، وحييب نفسه (١٥) ، ولي في هذا الملك
قصائد منها قصيدة هائية موسومة مدحته بها في أول سنة صحبت فيها
السلطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاج الدين أبو
اليمن بكلمة بديعة في وزنها ورويتها، وحسن ريبها، فأما كلمتي فهي:

بين أمر حلاوة العيش الشهوي
وهوى أحال غضارة الزمن البهي
وصبابة لاستقل بشرحها
عن حصرها حصر البليغ المدره
أحبتني إن غبت عنكم فالهوى
دان لقلب بالغرام موله
أنهي إليكم إن صبري متساء
بل منته والشوق ليس بمتته
أما عقود مدامعي فقد وهت
وأبت عقود الود مني أن تبي
ولقد ذهبت بينكم فاشتقتكم
يامن لمشتاق بينكم دهني
في شوقكم أبدى الزمان تفكري
وبذكركم عند الكرام تفكهي
لوقيل لي ما تشتهي من هذه الـ
مدنيا لقلت سواكم لأشتهي
ما كان أرفه عيشتي وألذها
من ذا الذي يبقى بعيش أرفه
ومن السفاهة أنني فارقتكم
من أين ذو الحلم الذي لم يسفه

ومنها:

وعقاب إيلة ما يفارق جلقا
أحد إليهما غير غرابله

مالي ومصر والمطامع إنما
ملكنت قيادي حيث لم أتنزذ

لاتنهني يا عاذلي فأنا الذي
تبمع الهوى وأتسى بما عنسه نهي
قد قلت للحادي وقد ناديته
في مهمه اقصر وصلت منه مه
حتم جذبك للزمام فأرخه
فلقد أنخت إلى ذرى فرخشه
متكرم بالطبع لامتكوره
شتان بين تكورم وتكوره
إحسان ذي مجد وهمة ماجد
مجد وتقوى عابد متألّه

وهي ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها:

هل أنت راحم عبرة وتولّه
ومجير صعب عند ما أمنه دهري
هيهات يرحم قاتل مقتولّه
وسنانه في القلب غير منهنه
من بل من داء الغرام فإنني
مدحل بي مرض الهوى لم أنقه
إني بليت بحب أغيد ساحر
بلحظه رخص البنان بدهره
أبغني شفاء تدلّهي من دلّه
ومتى يرق مدلل لمدلّه
يا مفردا بالحسن إنك متته
فيه كما أنافي الصبابة متتهي
قد لام فيك معاشر فانتهي
باللوم عن حب الحياة وأنت هي

أبكي لديه فإن أحسن بلوعة
وتشهو ق أو ما يطرف مقهقه
أنا من محاسنه وحالي عنده
حيران بين تفكه وتفكه
ضبدان قد جفنا بلفظ واحد
لي في هـ واه بمعنيين مـ ووجه

قلت: يقال تفكحت بالشيء أي تمتعت به، وتفكحت تعجبت، ويقال:
أيضا تفكحت تدمت، ومنه قوله تعالى (فظلمت تفكهون) (١٦) فهو في تفكه
أي تمتع بالمحاسن، وفي تعجب من حاله وتندم عليها ثم قال:

أناعبد من شهد الزمان بعجزه
عن أن يجيء له بنو مشبه
عبد لعز الدين ذي الشرف الذي
ذل الملوك لعز عبد فرخشه
طابت موارده فغص فناؤه
وشدا الحداة بذكره في المهمه
يفديك كل مملك متايه
أبداب السنة الرعاع عمده
لا يفقه النحوي إذا حدثته
وإذا أتى بحديثه لم يفقهه

قلت: وذكر العباد في ديوانه أبياتا حسنة في مدح الشيخ تاج الدين
أبي اليمن رحمها الله قال:

تذاكر من ورا د مصر عصابة
حديث فتى طاب الندى بذكره
وقالوارأينا فاضلا ذانبا هـ
أديبا يفوق الفاضلين بفخره
يدين حبيب والوليد لنظمه
ويجمده عبد الحميد لنثره

ولو عاش قس في زمان بيانه
لكان مشيدا في البيان بشكره
فضائله كالشمس نورا ولم تنزل
مناقبه في الدهر أعداد زهره
بيان هو السحر الحلال وإننا
نرى معجزا من فضله حل سحره
ذو الفضل هم عند الحقيقة أبحر
ولكنهم اضحوا جد اول بحره
يضع مهب الجمد من عرف عرفه
وتأرج أرجا السرجا بشره
فقلت لهم هذا الذي تصفونه
أبو اليمن تاج الدين أو حد عصره

قلت: وبلغني أن أول معرفة فرخشاہ أنه كان في مجلس القاضي
الفاضل بالقاهرة، فجاہ فرخشاہ إلى الفاضل فجرى ذكر بيت من شعر
أبي الطيب المتنبي، فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به، فأعجب فرخشاہ،
وسأل القاضي عنه، فقال: هذا فلان وعرفه بفضله، فلما قام فرخشاہ من
مجلس الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج وخرج به ولزمه إلى أن توفي رحمهم
الله اجمعين.

فصل

في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز

قال العماد: وفي شوال سنة ثمان وسبعين كانت نصرمة الاسطول المتوجه إلى بحر القلزم، والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ، لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز، وذلك أن الابرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ماتواى عليه من نكاية اصحابنا المقيمين بقلعة ايلة، وهي في وسط البحر لاسييل عليها لأهل الكفر، أفكر في أسباب احتياله، وفتح أبواب اغتياله، فبنى سفنا ونقل اخشابها على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال، وآلات القتال، ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة لمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباكون في مراكب نحو عيذاب، فقطعوا طريق التجار، وشرعوا في القتل والنهب والأسار، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز، فعظم البلاء، وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر، ووصل الخبر إلى مصر، وبها العادل أخو السلطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر في بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية، وسار إلى إيلة فظفر بالمركب الفرنجي عندها فحرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدى الى عيذاب، وشاهد بأهلها العذاب، ودل على مراكب العدو فتبعها، فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التجار، ورد عليهم ما أخذ لهم، ثم صعد الى البر فوجد أعرابا قد نزلوا منه شعابا، فركب خيلهم وراء الهاريين، وكانوا في أرض تلك الطرق ضارين، فحصرهم في شعب لا ماء فيه، فأسروهم بأسرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى منى، كما يساق الهدى، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم، وقطع أسبابهم، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف، ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف.

قلت: ولأبي الحسن ابن الذروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الواقعة
أشعار منها:

مريوم من الزمان عجيب
كأديبي في سرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى
قمرنتهم من طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال
وعلى ووج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدي
هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي
وسواه من السلاكي يصاد

ومنها:

قلت وقد سافرت يامن غدا
جهاده يعضد من حجه
إذ قيل سار الحاجب المرتجى
في البحر يارب السماء نجده
البحر لا يعدو على لؤلؤ
لأنه يكون من لجه

ومنها:

يا حاجب المجد الذي ماله
ليس عليه في الندي حجه
ومن دعوه لؤلؤا عند ما
صحبت من البحر له نسبه
لله تعمل من صالح
فيه ومات ظهر من حسبه

كفيت أهل الحرمين العدا
وذدت عن أحمد والكعبة

وله:

لئن كنت من ذا البحر يا أولي العلي
نتجت فإن الجود فيك وفيه
وإن لم تكن منه لأجل مذاقه
فإنك من بحر السماح أخيه

وله:

إنما أنت لؤلؤ للمعالي
جاء من أبحر السماح العذاب

وكتب السلطان إلى العادل من كلام الفاضل: « وصل كتابه المؤرخ
بخامس ذي القعدة المسفر عن المسفر من الأخبار المتبسم عن المتبسم
من الآثار، وهي نعمة تضمنت نعمًا، ونصرة جعلت الحرم حرما، وكفاية
ما كان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها، وعجبية من
عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها، وما كان الحاجب
لؤلؤ فيها إلا سهما أصاب، وحمد مسدده، وسيفا قطع وشكر مجردة،
ورسولا عليه البلاغ وإن لم يجهل ما أثرته يده، وقد غبطناه بأجر جهاده،
ونجح اجتهاده، وركب السيلين برا وبحرا، وامطى السابقين مركبا
وظهرا، وخطا فأوسع الخطوة، وغزا بأجر الغزو، وحبذا العنان الذي في
هذه الغزوة أطلق، والمال الذي في هذه الكرة أنفق، وهؤلاء الأسارى
فقد ظهروا على عبوة الاسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها،
ولو جرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار إلى الله، والخلق،
وانطلقت الألسن بالمدمة في الغرب والشرق، ولا بد من تطهير الأرض من
أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على
عورات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل،

وهذا مقام إن روعي فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر، حدث الفتق الذي لا يمكن في كل الاوقات سده ورتقه، ولدغ المؤمن مرتين والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه.

وفي كتاب آخر الى العادل أيضا: « ونحن نهني المجلس السامي بظفره ولم لا يكمله وينصره، ولم لا يعجله ويشكره، وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في إبقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، ولا حكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشاكل ولا مجهول، فليمض العزم في قتلهم، ليتناهى أمثالهم عن فعلهم، وقد كانت عزيمة ما طرق الاسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطفية أجراها على يد من رآه من أهلها».

وفي كتاب آخر أيضا الى العادل: « قد تكرر القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، ولا توردتهم بعد ماء البحر الانارا، فاقلهم اذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجل الراحة منهم، وعدت العاقبة بالأشق الأتعب».

ومن كتاب آخر إلى بغداد: وسارت المراكب الاسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية، المتعرضة للمراكب الحجازية واليمينية، وكانت مراكب العدو قد أوغلت في البحر، ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركابها في الكفر، فوصلت إلى عيذاب، فلم ينل منها مراد، غير أن ما وجدته في طريقها أو في فرضة عيذاب نالت منه وشعثت، وأفسدت فيه وعتت، وتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحوراء، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأوقعوا بها اشد ايقاع، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البدار والإسراع، ففر فرنجها إلى الساحل، فركب أصحابنا وراءهم خيول العربان التي وجدوها، وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها، وكفي المسلمون اشد فساد في

أرضهم، وأقطع قاطع لفرضهم، وانبسطت آمالهم بقبضهم، وعميت على الكفار هذه الطريق التي لو كشف لهم غطاؤها قدما، ولو أحاطوا بها علما، لاشتطت نكايتهم، واشتدت جنيتهم وعز على قدماء ملوك مصر ان يصرعوا هذه الاقران، ويطفئوا هذه النيران، ويركبوا غوارب اللجج ويرخصوا غوالي المهج، ويقتنصوا هذا الطائر من جوه الذي لا يدرك لوجه، ويديركوا هذا العدو الذي لا يدرك الا ان تستجد عليه ملائكة الله وروحه».

وفي كتاب آخر إلى بغداد: «كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكز حربية شحنها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز، وأثخنوا وأغلقوا في البلاد واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب، وماظن المسلمون إلا أنها الساعة، وقد نشر مطوي أشراطها، والدنيا وقد طوي منشور بساطها، وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم، ومقام خليله الاكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم صلى الله عليه وسلم، ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت اذ قصده اصحاب الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر، وكان حسبهم ونعم الوكيل، وكان للفرنج مقصدان: أحدهما قلعة إيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله، وانقسموا فريقين وسلخوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة إيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياه، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر ان يمنع طريق الحاج عن حجه، ويجول بينه وبين فجه، ويأخذ تجار اليمن، وكارم عدن، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكز وفرقها على الفرقين، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين، فأما السائرة إلى قلعة إيلة

فإنها انقضت على مرابطي الماء انقضاux الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء، فأخذت مراكب العدو برمتها، وقتلت أكثر مقاتلتها، إلا من تعلق بهضة وماكاد، وأدخل في شعب وماعاد، فإن العربان اقتصوا آثارهم، والتزموا احضارهم، فلم ينج منهم إلا من ينهي عن المعاودة، ومن قد علم ان أمر الساعة واحدة، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتهدت في الساحل الحجازي إلى رابع سواحل الحوراء، فأخذت تجارا، وأخافت رفاقا، ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هو أشد كفرا ونفاقا، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد اسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب اصحابنا وراءهم خيل العرب، يشلونهم شلا ويقتنصونهم اسرا وقتلا، ومازالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا، نهارا وليلا، حتى لم يتركوا عنهم خبرا، ولم يبقوا لهم اثر(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا)^(١٧) وقيد منهم مائة وسبعون اسيرا».

ومن كتاب آخر: «ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الاسطول مرة ثانية كاسرا كاسباء، غانما غالبا، بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ماوجده فيها من الأعمال والعمائر، ومن جملة ماظفر به في طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل اخشابا منجورة إلى عكا، ومعها نجارون ليينوا منها شواني فأسر النجارون، ومن معهم وهم نيف وسبعون، وأما الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكفي شرها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت أقصى إفريقية فتوحه وعاود به شخص الدين في تلك البلاد روحه».

في باقي حوادث هذه السنة .

قال العماد: وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وسبعين أنعم السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جارية في عمل الموصل، فلما تسلمها جعلها من نصيبه، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين، عند وفاة أخيه مودود وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم سلمها إليه دون أعمالها، تحلة ليمينه ووفاء بوعده الكريم ودينه، ولما جاء لمساعدتنا في هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام، ثم وهب له قلعة الجديدة، وهي قريبة من نصيبين، ووعدته بفتح آمد له فوفى بوعده كما سيأتي.

قال: وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهر الدين سكران، وهو خال صاحب ماردين بن ايلغازي بن ألبى بن تمرتاش، وصاحب ماردين هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي، فأنفذ شاه ارمن يشفع الى السلطان في الموصل وسنجار، وأرسل اليه سيف الدين وهو من أعز أصحابه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب ماردين، وصاحب الموصل وصاحب ارزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب، وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان، ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين يقال لها حرزم، فجمع السلطان عساكره، وجاءه تقي الدين من حماة إلى حران في خمس ليال، فسار اليهم بعد العيد الأكبر، فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وافترقوا، وعاد الخلاطي إلى خلاطه باختلاطه، ورجع الموصل إلى موصله لمواصله احتياطه، واعتصم الماردي بحصنة المارد، وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها ونحن على طريقه،

فأذن جمعه بتفريقه، ومضى معظمهم الى الموصل، فعبر الفرات عند عانة، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النساء، وقد جاؤوا وهم رجال، ثم نزل السلطان منزلة القوم بحرزم، وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السلطان

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة، نزل قراقوش، على بلد زالوت (١٨) وقاتله الى ان انهزم منها أهله، ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشتاء فأصبح يوماً فإذا حول المدينة عسكر مقداره خمسة آلاف رجل، فقام وافتقد اصحابه فلم يجد الا جماعة من البوابين والركابدارية، وباقي الناس سكارى، ورأى احد البوقية فأمره ان يضرب بالبوق، وفتح الباب وخرج فظن العسكر أن قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهزموا.

قال: ثم انه قصد طرابلس فحاصرها وضيق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قد راسل قراقوش، وطلب منه الأمان وسأله ان ينفذ اليه قوما يقرر معهم أمر التسليم، فأنفذ اليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه، فأخذهم عبد المجيد وأنزلهم في دار أخلاها وأمر لهم بجميع ما يحتاجون اليه، فلما خلا لهم الليل أخذوا المخاد وتصافعوا بها حتى قطعوها وقام بعضهم الى صهريج مملوء ماء للشرب فأحدث فيه، فخبرت الرقباء عبد المجيد بما كان منهم، فأحضر وجوه البلد وقص عليهم ما كان منهم وقال: اذا كان هؤلاء خيارهم فما ظنكم بشرارهم، وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد، فامتنعوا حينئذ وحضر ابن مطروح من الغد اليهم الى الدار ومعه وجوه البلد فقال لصاحب ضيافته: لم أحضرت لهؤلاء السادة مخاد مقطعة؟ فقال: ما أحضرت لهم إلا مخاد جددا، ولكن القوم أكلوا طعام الصوفية الذي لانعرفه في بلادنا، فاستحى القوم وعلموا انهم قد فطنوا بحالهم، ونزل رجل الى الصهريج فرأى العذرة على وجه الماء، فقال من فعل؟ فلم يرد واحد منهم جواباً، فقال ابن مطروح: يا قوم ما أدخلناكم إلينا الا عازمين على تسليم البلد

إليكم وأن نكون لكم رعايا، وقد شاهدنا منكم افعالا مانرضاهها، فإن قلتم ان هذه الفعلة من غلماننا وعبيدنا، فما اقبح هذه الأحدثة عن خيار اصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خير منكم فلم بعثكم إلينا، هذا طعن في عقله، ثم أمر باخراجهم من المدينة، فلما صاروا إلى قراقوش وعلم القصة عظم عليه الأمر وأراد الفتك بهم، وعلم انهم قد فتقوا عليه فتقا لايمكنه رقعته أبدا، وتيقن انه لايملك البلد أبدا، وانفذ عبد المجيد إلى قراقوش: إنك لست بقادر على أخذ هذا البلد لأجل مانفر به اصحابك قلوب أهله، فإن رأيت ان نجعل لك جعالة نحملها إليك في كل سنة وترحل عنا قطعنا، فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم بعد أن احتوى عليهم، قال: وتوافت إليه الفرسان من مصر حتى سار في ثمانمائة فارس من الأتراك، وسار من جبل نفوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الروم وغيره من المواضع والقلاع فهجم ونهب، وغنم وغلب، وخافه أهل تلك النواحي .

فصل

في فتح آمد

قال العماد: ثم سار السلطان الى آمد، ونزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجة بعد ان استأذن الخليفة في ذلك، فأذن له فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم، وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي.

ثم دخلت

سنة تسع وسبعين

قال ابن ابي طي: والسلطان منازل لآمد، واشتد قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتب رقاع فيها ابراق وارعاد، ووعد وایعاد، وان داموا على القتال ليستأصلن شأفتهم، وإن اعتزلوا وسلموا البلد ليحسنن إليهم وليضعن ماعليهم من الكلف والضرائب، وأمر ان تعلق تلك الرقاع على السهام وترمى الى آمد، فرمى من ذلك شيء كثير، فكفوا عن القتال، وأشاروا على ابن نيسان بطلب الأمان، فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح، وأمهل ثلاثة أيام، فلما عول على نقل أمواله فقد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ اليه غلمانا ودواب، وضربت له خيمة بظاهر آمد، وجعل ينقل مايقدر على نقله من المال والقماش، وآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة ايام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاثمائة انسان، ولم ينقل عشر ماكان له، وسرق من أمواله أكثر مما حصل له، لأنه ماأخرج أحد شيئاً إلا وأخذ نصفه أو أكثر، وكان ابن نيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لايمكن وصفها من الأسلحة والأموال والغلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ماحصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار من المجانيق واللعب والعرادات أشياء كثيرة لايمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد فيها برج من أبراجها فيه مائة ألف شمعة، وبرج مملوء بنصول النشاب وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين جمارة، ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لاحاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما

تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا ارسلان بما فيها، وكتب له بها
وبأعمالها توقيعاً، ووفى له بها وعده به، وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد
وما وعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الأموال والذخائر،
ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال: لأضن عليه بما فيها من الأموال
فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

قال: وفي فتح آمد يقول سعيد الحلبي من قصيدة في السلطان:

رمى آمد بالصافنات فأذعنت
له طاعة آكامها ووعورها
فما عز ناديتها ولا اعتصام ثغرها
ولا جاش طاميتها ولا ردسورها
وأنزلت بالكره ابن نيسان مخرجاً
كما أنزل الزبء كرها قصيرها
نهضت لها حتى إذا انقاد صعبها
وقر على طول الشماس نفورها
سمحت بها جود المن ظل برهة
يغاورها طوراً وطوراً يغيرها
وملكت ما ملكت منها تخولا
لأجدر أن يرجو ندادك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبي يذكر فتح آمد:

فيا ساكني الرعاء من سفح آمد
أرى عارضاً ينهل بالموت ها طله
لئن غضبت يوماً عليكم عروشها
فهذا ابن أيوب وهذي معاقله
ولو رامها يوماً سواه لقطعت
أباهره من دونها وأباجلة

قلت وقال آخر:

لو عرفت أمد من جاءها
يخطب في الإسلام تسليمها
لصيرت أعلى شرار يفهمها
لمن على الأرض سلاليمها

قال العماد: وأما أمد فحصل فتحها يوم الأحد في العشر الأول من المحرم، وكان مدبر أمد ابن نيسان، فهو رئيسها والقائم بأمرها، وكان لأمد أمير قديم يقال له، ايكليدي من أيام السلاطين القدماء، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعي أنه من غلماناه ومصطنعيه، وأنه يحفظ البلد له، وأنه لا يغدر به ولا يؤثر بدله، وإذا جاء رسول يحضره عند أميره ويسند ما يدبره إلى تدبيره، ويقول انه غلام، ومامعه كلام، وحافظ على سر هذه السريرة، وآمن باحتياطه من جور الجيرة، بل مامنهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكره، وينكر عرفه، ويعرف نكره، ولم يزل الحصار عليهم إلى أن أذعنوا للانقياد، وخرجت نساؤهم سحرًا إلى المخيم الفاضلي يطلبن الأمان، فأمنهم السلطان، على أنهم يخرجون بعد ثلاث، ويحملون ما قدروا عليه من المال والاثاث، وأعانهم السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال، فلما انقضت مدة الأمان، تسلمها السلطان، وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان، بأعمالها ومافيهها، وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها، ثم وصف العماد ما كان في قلعة أمد من الذخائر والأموال، والحواصل والأمتعة وأن أصحابها لم يقدروا في تلك الأيام الثلاثة إلا على تحويل ما خف منها واستغنى المساعدون لهم في تحويلها اليهم.

وكتب الفاضل عن السلطان إلى الديوان ببغداد: «ورد إلى الخادم التقليد الشريف بولاية أمد، فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا مفتاحها،

وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد، وقال: هذا مصباحها، وتناوله فما ظن الا كتابا انزل عليه من السماء في قرطاس، وماتيقنه الا نورا يمشي به في الناس، فسار به، ولولا العادة ما استصحب جنديا وعول عليه، ولولا الرتبة لما تقلد هنديا، وطرق بابه باقليده، ولولا ما استطاع للأولياء ان يظهره، وما استطاعوا نقبا، وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاث رسائل، فلو كان ذا سمع اصغى، ولو كان ذا لب لبي، فلما انقضت ضيافة أيام الندارة، واحتقر من بآمد نار الحرب جاهلا ان «وقودها الناس الحجارة»، عمد لها في اليوم الرابع فزلزل عمدها، وقتلها فأنزل جلدها، وزيل جلمدها، ثم رأى أن الشوكة ربما اصابت غير ذات الشوكة من جندها، وان المسلم قد أمن عذاب الحريق ولا يأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زندها، فعدل الى منجنيقه أمل صاحبها منه منجانيقه، ورأى ان سوط سطوته يضرب الحجر، ويضرب عن أن يياشر البشر، وتلك الأبرجة قد شمخت بأنفها، ونأت بعطفها، وتاهت على وامقها، وغضت عين رامقها، فهي في عقاب لوح الجو كالطائر الا ان المنجنيق أغرى بها عقابيه، وضغمها بمخليبه، وخصم أمامها يخاصمها، وقام إلى الغير يحاكمها، ويضرب بعصاه الحجر فتنبجس من النقوب اعين لا ترسل الماء، ولكن تروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظمأى كذلك أياما حتى محي من الشرفات شنب ثغرها، وتناوبها كأس فتك تيين بهز أبراجها آثار شكرها، وعلت الأيدي الرامية لها، وغلت الأيدي المحامية عنها، فلم يبق على سورها من يفتح جفنا، وشن المنجنيق عليها غارته الى ان صارت سنا، وفضت صناديق الحجارة المقفلة، وفصلت منها اعضاء السور المتصلة، ووجب القتال لكلا يظن بالخدام ان لاجند به الا جندله، فأوعزنا التقدم اليها ودخول النقاين فيها، فأثخنت جراحا بالنقوب، وهتك الحجاب من أضالع البلد، فكاد يتصل الى ماوراءها من القلوب، وخشيت معرفة الجيش في وقت هجمه، وروسل صاحبها بأنه كشف له الخذلان حتى نصر على شكه بعلمه،

فأعاد الرسول مستنكفاً تحجب النجاة بإرسال ذوات الحجاب وإبرازهن، ومستكفاً ليد القتل بمن لم يكن جوابه غير احرازه واحرازهن، ولم يعارض في نفسة ولا في قومه ولا في أمواله، وهي ماهي ذخائر موفرة، ومكاسب من أرباح مخسره، كانت الحقوق عنها مذودة والآمال دونها مطرودة، وغض الخادم كل عين عن عينه وورقه، وصانه في مخيمه من الفقر صيانتة في ذات سوره وخندقه، واستوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقه، وهذه أمد فهي مدينة ذكرها بين العالم متعالم، وطالما صبادم جانبها من تقادم فرجع مجذوعاً أنفه وإن كان فحلاً، وقرعها فريد الهمة، واستصحب جفلاً، ورأى حجرها فقدر انه لا يفك له حجر، وسوادها فحسب انه لا ينسخه فجر، وحمية أنف أنفها فاعتقد أنه لا يستجيب لزجر من ملوك كلهم طوى صدره على الغليل الى موردها، ووقف بها وقوف المحب المسائل فلم يفز بها أمل من جواب معهداها».

ثم ذكر تسليمها إلى ابن قرا أ رسلان ثم قال: «ولما رأى صاحب ميفارقين أن اخت صاحبتة قد ابنتي بها خاف ان نجمع له بين الأختين، فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين».

ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم، على قصد الخادم، ونزلوا تحت الجبل، فلما صح عندهم قصده ظنوا أنه واقع بهم، فأخذوا عنه الفرار بقوة، وذكروا ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مخوفة وعنده مرجوة، وسار كل فريق على طريق بنية عدو وفعل صديق، والخادم يقول مهما ارادت فيه الآراء الشريفة أتاه، ومهما نوت فيه من إحسان قرب عليه مانواه، فهذه أمد لما أرسل اليه مفتاحها، وهو التقليد فتحها، وهذه الموصل لما تأخر عنه المفتاح منعها وما منحها، ولو أعين به لعظمت على الاسلام عائدته، وظهرت في رفع مناره فائدته لأن اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة، والهمة لآلات النصر واجدة، فإن رأى أمير المؤمنين ان يميز بين أوليائه، وينظر

أيهم أبر بأوليائه، واشد على اعدائه وأقوم بحقه وحق آبائه وأيهم أترك للفراش المهمد، وأهتك للطريق الممدد، وأهجر في سبيل الله لراحة، وأصبر في جهاد عدو الله على مضض جراحة، وأسلى عن رجانة فؤاد، وأكثر ممارسة لحية واد، فيختار لهذه الأمة التي جعله الله لها إماما وأما ما أسعد من أجرى في طاعته ضامرا، وملا بولايته ضميرا فمن عدله أن يولي عليها العدل الذي يقر عينها، ومن فضله أن لا ينسى الفضل بينها، وقد ورد ذلك المنشور بآمد فأورد الميسور، فإن ورد المنشور المشار اليه بالجزيرة وماوسعت فإنه نور على نور، وما يحسب الخادم ان كيدا للعدو الكافر أكيد، ولا جهدا لأهل الضلال أجهد، ولا عائدة بغيظ رؤساء أهل الالحاد أعود من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام، والا فلينظر هل يشق على الكفار مزيد احد سواه من ولاة الاسلام، فكل ذي سلطان هو الطاعم الكاسي المحمي بالمناضل لا الحامي، المكفي لا الكافي يقضي عمره وهو لا يشهد الطعن الا في الميدان، ولا يمثل الهام طائرا لولا الكرة في الصولجان، ولا يشقى بسهمه الا قرطاسه، ولا يحظى برفده الا اكياسه، فأعاد الله بأمير المؤمنين هذا الدين الى معالم حقه الأولى، وأطال يد سلطانه الطولى، الى أن تأخذ الأمور مأخذها عدلا واعتدالا وسلما وقتالا، فيعود إلى الاسلام عوايد ارتياحه، وأيام منصوره وسفاحه».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان الى وزير بغداد: «اصدر هذه الوسيلة الى المجلس السامي معولا على كرمه فيما حملته من اللبانة، مستغنيا بشهرة الحال المتجددة عن الإبانة، فإن آمد قصر الأمد في الظفر بها، وأنقاذا من المظالم التي كانت تلبس نهارها بقبة غيبها، وسار اليها ببقية العساكر بعد الذين ساروا إلى الشام، وأقاموا قبالة الكفار، بعدة اقتصر عليها أكثرها من عساكر الديار المصرية على بعد تلك الديار ليظهر لمن نوى المناوأة، ويتبين لمن كان على منافاة الملاقاة، أن رجالا من مصر فتحوا آمد بعد سنة من البيكار، وبعد غزوتين قد طولع بهما في تواريخهما إلى الكفار، ففي ذلك ما يغص الحاسد، ويغض الحاقد، ويعلم

أن في أولياء الدولة مارد كل مارد، فلما حل بعقوبتها أراد أن يجري الأمر على صوابه، ويلج الأمر من بابه، وأن ينذر المغتر ويوقظه، ويعظه بالقول الذي رأى من الرفق ان لا يغلظه، فبعث اليه ان يهب من كراه، ويعد لضيف التقليد قراه، وينجو بنفسه منجأ الذئاب، ولا يتعرض بأن يكون منتجاً للذئاب فإذا عريكته لاتلين إلا بالعراك، وطريدته لاتصاد الا بالاشراك، فهناك رأى عاجلا ماهناك، وقوتل حق القتال في يوم واحد عرف ما بعده من الأيام، ووقع الاشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام، ونصب المنجنيقات فأرسل عارضها مطره وفطر السور بقدرة الذي فطره، وخطب امامها خطيب خطبه، وأغمد الصارم اكتفا بضربه، وترفه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حزبه، فصار في أقرب الاوقات جبلها كثيبا مهيبا، وعفرت الأبرجة وجها تربا، ونظرت القلعة نظرا كليلا حتى إذا أمكنت النقب ان تؤخذ، وكبد السور ان تفلذ، رأى الذي لا يصبر على بعضه، واعتذر اليه البناء الذي بناه إن لم يقضه، فلا بد من نقضه، وسأل فأجيب إلى الأمان على نفسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظلم، وسلم وهو يرى السلامة إما من الحلم وإما من الحكم.

ثم قال: « ولولا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذي قرعه، ولأنزل عليه النصر الذي أنزل معه، ولا ساعد سيفا ساعد، ولانالت يد مدت من مصر فأخذت أمد، ومن بآمد، ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها، ولو بدلجة أدلجها، ولو بحصاة نبذها، وهو يتوقع في جواب هذا الفتح ان يمد بجيش هو الكلام، ورماح هي الاقلام، ونصر هو وافد الامر، وترشيد هو فك الحجر، وليس ذلك لوسائل من دولة اقامها بعد ميل عروشها، ولالدعوة قام فيها بما تصاغرت دونه جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجزيرة الكبيرة، وهي دار الفرقة، ومدار الشقة، ولو انتظمت في السلك، لانتظم جميع عسكر الاسلام في دار الشرك، ولكان الكفر يلقي بيديه، وينقلب على عقبيه، ويغشاه الاسلام من خلفه ومن بين يديه، ويغزى

من مصر برا وبحرا، ومن الشام سرا وجهرا، ومن الجزيرة مدا وجزرا، ويكون خادمه قد وجب أن يتمثل بقوله تعالى (ولقد مننا عليك مرة أخرى) (١٩).

ومن كتاب آخر: « كتابنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها، وعدقت بدولتنا اسبابها، وتكلم لسان عملنا في فم قلعتها، وبعد ان لبستها دولتنا وفينا بموعد خلعتها، فالحمد لله الذي تتم النعم بحمده، وينجح الأمل بقصده، ما يفتح الله للناس من رحمه فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده».

قال العماد: ثم دخل السلطان مدينة آمد وجلس في دار الإمارة، وحلف نور الدين بن قرا أرسلان على أنه يظهر بها العدل، ويقمع الجور، ويكون سامعا مطيعا للسلطان من معاداة الأعداء، ومصافة الخلان، في كل وقت وزمان، وأنه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان وإليه عطشان.

قال: وكان هذا نور الدين في خدمة السلطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفرات، ثم ان رسل ملوك الاطراف اجتمعت عند السلطان كل يطلب لصاحبه الأمان، وان يتخذ من جملة الأعوان منهم: صاحب ماردین، وصاحب ميفارقين، وهما قريبا ابن قرا أرسلان فرد السلطان كل رسول بسوله، وأجاب إقباله بقبوله، ثم رحل السلطان من آمد وعبر الفرات لقصده حلب، وولايته فتسلم في طريقه تل خالد بالرعب، ولم تكن منهم بالقرب، فأقر أهلها فيها ثم نزل على عين تاب، فبادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين إلى خدمة السلطان، فأعاده إلى مكانه بالاحسان.

وقال ابن أبي طي: تسلم السلطان تل خالد في رابع عشر المحرم،

وسلمها الى بدر الدين دلدرم، ومن كتاب فاضلي: « نزلنا تل خالد يوم
الثلاثاء ثاني عشر المحرم، وكان قد تقدمنا الأجل تاج الملوك إليها، وأناخ
عليها، وقابلها وقاتلها وعالجها، ولو شاء لعاجلها، ولما أطلت عليها
راياتنا القى من فيها بيده، وانجز النصر صادق مواعده، وأرسلتها حلب
مقدمة لفتحها، وقد أنعم الله علينا بنعم لانحصيها تعدادا ولانستقصيها
اعتدادا، ولانستوعبها، ولو كان النهار طرسا والبحر مدادا، ورايتنا
المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها، وسيوفنا قد صارت
مفاتيح الامصار تفتحها بنصر الله، لايحدها ولايقطعها .

قلت: وما أحسن ما قال التلعفري من قصيدة له في السلطان:
قل للملوك تنحوا عن ممالككم
فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها

فصل

في فتح حلب

قال القاضي ابن شداد: لما عاد السلطان بدأ بتل خالد، فنزل عليها، وقاتلها وأخذها في ثاني عشر المحرم سنة تسع وسبعين، ثم سار الى حلب فنزل عليها في سادس عشري المحرم، وكان اول نزوله بالميدان الأخضر، وسير المقاتلة يقاتلون ويياسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك، وكان عماد الدين زنكي قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزاز في تاسع جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فإنه كان قد صار مع السلطان وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها، وجرت غارات من الفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر.

قال: ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير، وقاتلها قتالا شديدا، وتحقق عماد الدين زنكي انه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الامراء عليه وجههم اياه، فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة، ولم يشعر احد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر، ثم اعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بلک، فبقوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر، وعلى أهل البلد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الأخضر، ومقدموا حلب، وخلع عليهم، وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي اشغاله، وينقل اقمشته وخزائنه الى يوم الخميس ثالث عشري صفر، وفيه توفي تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذي كان أصابه وشق عليه أمر موته، وجلس للعزاء.

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابن القادسي أن مولده سنة ست وخمسين في ذي الحجة، فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا، وانشد له شعرا، وقال العماد الكاتب في كتاب الخريدة انه لم يبلغ العشرين سنة^(٢٠) وله نظم لطيف، وفهم شريف، ثم قال القاضي أبو المحاسن، وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه وسار معه بالميدان الأخضر، وتقررت بينهما قواعد، وأنزله عنده بالخيمة، وقدم له تقدمه سنية وخيلا جميلة، وخلع على جماعة من أصحابه، وسار عماد الدين من يومه إلى قراحصار سائرا إلى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم بعد مسير عماد الدين غير مكترث بأمر حلب ولا مستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشري صفر، ثم صعد في ذلك اليوم قلعة حلب مسرورا منصورا، وعمل له حسام الدين طمان دعوه سنية، وكان قد تخلف لأخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره.

وقال العماد: وصل السلطان إلى حلب، وفيها عماد الدين زنكي بن مودود الذي كان صاحب سنجار، وقد تحصن بكثرة الأجناد والعدد، وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته، وأراد السلطان أن يظفر بها بدون ذلك من القتال، وعداوة الرجال، ولكن الشباب، وجهال الأصحاب راموا القتال، واحبوا النزال وتقدموا واقدموا والسلطان ينهاتهم فلا يتتهون، وكان فيهم تاج الملوك بوري أخو السلطان فطعن في فخذه، ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد، وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمة لعماد الدين زنكي، وكان السلطان أول ما نزل على حلب نزل في صدر الميدان الأخضر، وذلك في زمن الربيع، ثم رحل ونزل على جبل جوشن، ونهى عن القتال وقال: نحن هاهنا نستغل البلاد،

وما علينا من الحصن الذي بلغ هذا العناد، وأنفذ رسل التهيب ففكر عماد الدين زنكي في أمره، ورأى أن الصواب مصالحة السلطان، فأنفذ سرا إليه حسام الدين طمان، وصالحه وحلفه على أن يسلم إليه حلب

ويرد عليه بلده سنجار، ففعل وزاده الخابور ونصيبين والرقعة وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة ومن كتب فاضلية: «تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها، وبلغت بها الهمم أوطارها، وعوض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره، ومختلط بالجملة، فهو واحد الأولياء في مغيبه ومحضره، وعوض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقعة وسروج، فهو صرف بالحقيقة أخذنا فيه الدينار، وإعطينا الدراهم، ونزلنا عن المبيحات وأحرزنا العواصم، وسرنا أنها انجلت والكافر المحارب، والمسلم هو المسلم، واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغزو والمصابرة، فانتظم الشمل الذي كان نثيراً، واصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وزال الشغب، وأخذ اللهب، واتصل السبب، واخذت للغزاة الأهب ووصلت إلى غاية همة الطلب، والألفة واقعة، والمصلحة جامعة، واشعة أنوار الاتفاق شائعة».

ومنها: «فتحنا مدينة حلب بسلم ما كشفت بحرمتها قناعاً، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت ان تسلم بعدها بمشيئة الله قلاعاً، وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة الموفرة، فهي بيدنا بالحقيقة لأن مرادنا من البلاد رجالها، لأموالها، وشوكتها لازهرتها ومناظرتها للعدو لانضرتها، وان يعظم في العدو الكافر نكايتها، لأن تعذق بالولي المسلم ولايتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ما كانوا يؤملون، وأمناً ما كانوا يحدرون، وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على ان تكون العساكر مجتمعة، على الاعداء مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرنا، وفي يده مالا نضمن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العدة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلداً الا الينا عاد عسكره، وانما استتبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى

عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (٢١).

ومنها: « نشعر الامير بما منَّ الله به من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسلم قلعتها التي هي أحد مارسات به الارض من الأوتاد، فله الحمد وأين يقع الحمد من هذه المنة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي الجنة، وصدرت هذه البشرية والموارد قد أمضت الى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديتها وحاضرها، وقلعتها قد اناف لواؤنا على انفها، وقبضت على عقبه بكفها واعتذرت من لقائه امس برشفها، ورأينا ان نتشاغل بها بورك لنا فيه من الجهاد، وان نوسع المجال فيما نضيق به تقلب الذين كفروا في البلاد».

قلت: ولأبي الحسن بن الساعاتي في مدح السلطان عند ارادة فتح حلب قصيدة منها:
مأبعد لقياك للعافين من أمل
ملك الملوك وهذي دولة الدول
فانهض إلى حلب في كل سابقة
سروجهما قل تغني عن القل
مافتحها غير إقليد الممالك والـ
داعي إليه جميع الخلق والملل
وما عصت منعة لكنه غضب
عالم أهملتها إهمال مبتذل
غارت وحقك من جاراتها فشكت
مأباله بافتضاضي غير محتفل

وللقاضي السعيد بن سناء الملك من قصيدة:
بدولة الترك عزت دولة العرب
ويابن أيوب ذلت بيعة الصلب

إن العواصم كانت أي عاصمة
لنفسها بتعاليتها عن الرتب
جليسة النجوم في أعلى مراتبه
وطالما غاب عنها وهي لم تغيب
وما نعتته كمعشوق تمنعه
أحلى من الشهيد وأشهى من الضرب
فمر عنها بلا غيظ ولا حنق
وسار عنها بلا حقد ولا غضب
تطوي البلاد وأهلها ككتابة
طيا كما طوت الكتاب للكتب
أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها
بمالك فطن أو سائس درب
مالك لم يدبرها مدبرها
الابرأى خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحت
من الفساد كما صحت من الوصب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة
فهو الذي يهب الدنيا ولم يهب
ومذرات صده عن زبعتها حلب
ووصله لبلاد الغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر
منها إليه وأبدت وجهه مكتتب
واستعطفته فوافتها عواطفه
وأكتب الصلح إذ نادته عن كتب
وحل منها بأفق غير منخفض
للصاعدين وبرز غير منقلب
فتح الفتوح بلامين وصاحبه
ملك الملوك ومولاه بالاكذب

قال ابن أبي طي: وكان كثير من الشعراء يخرضون السلطان على فتح
حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبي له من قصيدة:
يا ابن أيوب لا برحت مدى الـ

ـدهر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مراك وهي
وليه الصب ريع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة:
دونك والحسناء أم القرى
ونارها الأشهب والطود الأشم
واركب إلى العلياء كل صعب
أييت لعنا وخالك كل ذم
وارم فكل الصيد في جوف القرى
لا صارم السهم ولا ناي الحكم
مد إلى أخت السها (٢٢) زورة
لا فرق يعقبها ولا ندم
فيها لها شفاء مشمخرة
تطرح البرق وساحات الديم
إيه صلاح الدين شد أزرها
واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المنعة من قبائها
وبابها المغلق في وجه الأمم

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نشر سنجق السلطان
الأصفر على سور قلعة حلب، وضربت له البشائر، وفي ذلك الوقت
تخفى عماد الدين وخرج من القلعة ليلا إلى المخيم، وأخذ في إخراج
ما كان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث، وكان استناب الأمير حسام
الدين طمان في القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور
إلى نوابه، وأعطى السلطان طمان الرقة لوساطته في أمر عماد الدين، وكان

السلطان شرط انه ما يريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين في أخذ جميع ما في القلعة، وما يمكنه حمله، فلم يترك عماد الدين فيها شيئا، وباع في السوق كل ما لم يتمكن من حمله، وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسوم حمل ما يحتاج إلى حمله، وعمل له يوم الأحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدمي حلب.

قال: وبينما السلطان على لذته بالدعوة والأخذ والإعطاء والانععام والحبا إذ حضر إليه من عرفه وفاة أخيه تاج الملوك بسبب الضربة التي أصابته على حلب، فلم يتغير لذلك، ولا اضطرب ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح، وبذل الاحسان، وأمر بستر ذلك وتوعد عليه، إن ظهر، وكظم حزنه وأخفى رزيقه، وصبر على مصيبته، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر، وفي ذلك الوقت انقضت الدعوة، وتفرق الناس، فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه، ثم أمر به فغسل وكفن وصلى عليه وأمر به فدفن بمقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك الى دمشق ودفنه بها.

قال: وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الأعطاف، عذب العبارة، حلو الفكاهة، مليح الرمي بالقوس والطعن بالرمح، وكان شجاعا باسلا مقداما على الأهوال وكان قد جمع إلى ذلك الكرم والتفنن في الأدب وله ديوان شعر حسن متوسط فمناه:

يا هذه وأمانى النفس قربكم

يا ليتها بلغت منكم أمانها

إن كانت العين مذفارتكم نظرت

إلى سواكم فخانتها أمانيها

قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس في اليوم الرابع، وفرق في وجوه الحلبيين الأموال.

وفي سادس عشري صفر ورد أصحاب عماد الدين، وأحضروا اليه العلائم بتسليم سنجار، ونصبيين والخابور، ففي ذلك اليوم تسلّم قلعة حلب وأنزل منها الأمير طمان وأصحابه، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السلطان ظاهراً، وركب السلطان إلى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشمال فتسالما، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين، فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وابوه في خدمة السلطان إلى المخيم بالميدان الأخضر، فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراحتة، وقدم له تقديماً حسنة عشرين بقجة صفر فيها مائة ثوب من العتابي والأطلس والمعتنق والممرس، وغير ذلك وعشرة جلود قندس، وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده، ومائة قباء ومائة كمة وحجرتين عربيتين بأداتهما وبغلتين مسروجتين، وعشرة أكاديش، وخمس قطر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بخت، ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب، وخرج السلطان معه، وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من بابلي، وودعه وعاد وسار عماد الدين إلى بلاده.

قال: في يوم الاثنين سابع عشري صفر ركب السلطان وصعد إلى قلعة حلب، وكان صعوده إليها من باب الجبل، وسمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) (٢٣) الآية، وقال: والله ماسررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت، وقال: صعدت يوماً مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعت يقرأ: (قل اللهم مالك الملك) الآية.

قال: ولما بلغ السلطان إلى باب عماد الدين قرأ (وأورثكم أرضهم

وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطوؤها^(٢٤) ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين،
ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى
المخيم وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للهناء
بفتح حلب، وأنشده جماعة من الشعراء، منهم يوسف البزاعي له من
قصيدة:

شرفت بسامسي مجدك الشهباء
وتجلت لها بهجوة وضياء
ألقنت إليك قيادتها وبها على
كل الملوك ترفع وإبواء

ومنهم سعيد بن محمد الحريري له من قصيدة تقدم بعضها:
وصبحت شهباء العواصم مصلتها
قواضب عزم لا يفـل شهرها
فأمطتك منها غاربافيك راغبا
وعاد يسيراني يديك عسيرها
وأوطأت منها أخصيـك تنوفا
يعز على الشعري العبور عبورها
ورد إليها روح عدلك روحها
وكانت رميا لا يرجى نشورها

قال: وقال والدي أبو طي النجار من قصيدة:
حلب شامة الشام وقد زيد
ت جلالا ييوسف وجمالا
وهي أس الفخار من نال أعلا
هاتعال فخامة وتغالا
ومحل العلاء من حل فيها
تاه كبراه وعزة وجمالا
من حواها مملكاً ملك الأرا
ض اقتساراً سهولة وجمالا

فافتزعها مهنا بمحمل
(٢٥) سمق الأنجم الوضاء وطالا

قال: وحدثني جماعة من الحلبيين منهم الركن بن جهبل العدل، قال: كان الفقيه مجد الدين بن جهبل، الشافعي الحلبي قد وقع إليه تفسير القرآن لأبي الحكم المغربي، فوجد فيه عند قوله تعالى: (الم غلبت الروم) (٢٦) الآية إن أبا الحكم قال: إن الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقدس ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه، فلما فتح السلطان حلب كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه، ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى، فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وحدث بها في الورقة لمحيي الدين بن زكي الدين القاضي الدمشقي، وكان ابن زكي الدين واثقا بعقل ابن جهبل، وأنه لا يقدم على القول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر

قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

ولما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته، ثم حين فتح البيت المقدس خرج إليه المجد بن جهبل مهنتا له بفتحه، وحدثه حديث الورقة، فتعجب السلطان من قوله، وقال: قد سبق إلى ذلك محيي الدين ابن زكي الدين، غير أني أجعل لك حظا لا يزاحمك فيه أحد، ثم جمع له من في العسكر من الفقهاء وأهل الدين، ثم أدخله إلى القدس بعدما خرج الفرنج منه وأمره أن يذكر درسا من الفقه على الصخرة، فدخل وذكر درسا هناك وحظي بهالم يحظ به غيره.

قلت: وسيأتي في فتح بيت المقدس في فصل المنبر ذكر مقاله أبو الحكم في تفسيره، وغيره مما يناسبه، وبالله التوفيق.

وقال العماد: ثم فتح حلب في صفر من هذه السنة ، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها:
وفتحكم حلب بالسيف في صفر
مبشر بفتح القوس القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره ، قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبي الاسطول المنصور في أبيات وهي:
يؤمل المملوك مملوكه
تبدل الوحشة بالأنس
تخرجه من لينل وسواسه
بطلععة تشرق كالشمس
فوحدة العزبة قد حركت
سواكن البلبال والمس
فلاتدع يهدم شيطانه
ما أحكم التقوى من الأس
فوقع اليوم بمطوبيه
مما سبى الاسطول بالأمس
لازلت وهابا لما حازه
سيفك من حور ومن لعس
وإنني أمل من بعدها
كرائم السبي من القدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب ما أملت عام القدس

فصل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم الفرنج واستدعاهم إليه مطمعا لهم في الاستيلاء على حارم، بشرط ان يعصموه من الملك الناصر، وعلم الأجناد بقلعة حارم بها عزم عليه فتأمروا بينهم في القبض عليه، وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعد إليها في أموره ولذاته، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان، وكان السلطان راسل والي حارم وبذل له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيعة في دمشق يملكه إياها ودار العقريقي التي كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها، وحمام العقريقي بدمشق، وثلاثون ألف دينار عينا، ولأخيه عشرة آلاف دينار، فاشتط في السوم وتغالى في العوض، فأنفذ إليه السلطان وتوعده وتهدده، فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل إن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه عند السلطان ويتحصل منه شيئا، فكاتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب إليه السلطان بتتيمم ذلك ووعده بأشياء سكن إليها، وجرى الأمر على ما ذكرناه من إغلاق الباب في وجه الوالي، وقيل إن النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامة لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السلطان، ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ تقي الدين إلى حارم ليتسلمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدا، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعين وسلموها إليه في تاسع عشر صفر، ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا، فقال للسلطان يامولانا لا تلتفت إلى هؤلاء فإنهم آذوا هذا الوالي وكذبوا عليه حتى فوتوه ما كان السلطان وعده به، وما قلت هذه إلا عن تجربة، فإنني لما كنت

متوليا هذه القلعة جرى علي من كذبهم في حقي وتحزصهم علي أمور كدت بها أهلك مع نور الدين، وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السلطان يقرهم في القلعة على هذه التجربة، فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم، وولى في القلعة غيرهم، وقال لابن الداية: إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نفي بها نعد، ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد، وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانا بها، وقرر له في كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كمة وقباء وما يحتاج إليه من الطعام وغيره، وجعل معه واليا سيف الدين ازكش الأسدي، وولى حسام الدين تيمرك الخليفتي شحنة حلب، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي، ودار الضرب فضرب الدرهم الناصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخطابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحيي الدين بن زكي الدين الدمشقي، فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسي، وولى الجامع والوقوف أبي علي بن العجمي.

وقال العماد: كان في قلعة حارم مملوك من ممالك نور الدين، فعصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلمها، ودبر أمرها وأحكمها.

وقال ابن شداد: أنفذ إلى حارم من يتسلمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأحناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم إليه يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر فحلف لهم، وسار من وقته إلى حارم فوصلها تاسع عشرين صفر فتسلمها، وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول، ثم أعطى العساكر دستورا، فسار كل منهم إلى بلده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها.

قال العماد: ورجفت أنطاكية بعد ذلك رعباً فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين، وانقاد وسارع إلى أمان السلطان، وولى السلطان القضاء بحلب محيي الدين بن الزكي فاستتاب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي، وكشف السلطان عن حلب المظالم، وأزال المكوس، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازي، وكان استصحبه من مصر عند وصوله إلى الشام، وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق، وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر.

قلت: وفي توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان: «وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوما استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار، ولها مقدار إلا عند من كل شيء عنده بمقدار، منها ماهو على الأثواب المجلوبة، ومنها ماهو على الدواب المركوبة، ومنها ماهو في المعاش المطلوبة، وقد رأينا بنعمة الله أن نطلبها، ونضعها ونعطلها، وندها ونضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ماهو أهدي سبيلا، ونقول ماهو أقوم قبلا، ونكره ماكره الله، ونحظر ماحظره الله، ونتأجره سبجانه فإنه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله، وأربح متجره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها، ولنا غدا بمشيئة الله مايرفع من أجرها، فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا أن لايهووا إليها يدا، ولايردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا، ولايثقلوا بها ميزان المال، فيخف ميزان الأعمال ولايرغبوا في كثير الحرام فإن الله يغني عنه بقليل الحلال، وليعلم أن ذلك من الأمر المحكم، والقضاء المبرم، والعزم المتعم».

وفي منشور أهل الرقة بمثل ذلك: «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه،

وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوضه، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه ما أقرضه، ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة أشرفنا منها على سحت يؤكل، وظلم مما أمر الله به أن يقطع، وأمر الظالمون أن يوصل، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها، ويلقوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا بأسرها، ونعتق بلد الرقة من رقعها، ونثبت أحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحققها، وقد أمرنا بأن تسد هذه الأبواب وتعطل، وتسخ هذه الأسباب وتبطل، وتستمطر سحائب الخصب بالعدل وتستنزل، ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين، ويسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين، مسامحة ماضية الأحكام، مستمرة الأيام، دائمة الخلود خالدة الدوام، تامة البلاغ بالغة التمام، موصولة على الأحقاب، مسنونة في الأعقاب، ملعوننا من يطمح إليها ناظره، وتتناولها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمع لا يوصله إليه غده».

قال العماد: وورد على السلطان وهو نازل على حلب بشارتان احدهما أن الاسطول المصري غزا في خامس عشر المحرم، ورجع بعد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً من خيالة وتجار، والثانية أن فرنج الداروم نهضوا فنذر بهم إلى الشرقية، فخرج إليهم فالتقوا على ماء يعرف بالعسيلة، فاستولى عليهم المسلمون بعد أن كادوا يهلكون عطشاً، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا الماء فأرواهم الله بهاء السماء.

قلت: وكتب الفاضل عن السلطان إلى بغداد بهاتين البشارتين وبفتح حلب وحمارم كتاباً شافياً أوله: «أدام الله أيام الديوان العزيز ولا زالت منازل مملكته منازل التقديس والتطهير، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجبا للتقديم والتصدير، والأمة مجموعة الشمل بإمامته جمع السلامة لاجمع التكسير، الخادم ينهي أن الذي يفتحه من البلاد

ويتسلمه إما بسكون التغمذ أو بحركة ما في الأغماد، إنما يعده طريقا إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار، ويحسبه جناحا يمكنه به المطار إلى ما يلابسه الكفار من الأقطار، وعلى هذه المقدمة فهو يستفتح بذكر ظفرين للاسلام: بري وبحري، شامي ومصري، احدهما وهو البحري عود احد الاسطولين اللذين اغزاهما اخو الخادم ابو بكر بمصر، وكانت مدة غيبته من حين خروجه إلى وقت عوده إلى دمياط تسعة أيام، فظفر ببطسة مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا منهم خيالة ذوو شكة وازعة، وتجار اولو ثروة واسعة، والثاني وهو البري نهوض فرنج الداروم إلى أطراف بعيدة فنذر بهم إلى الشرقية، فركب اليهم الليل فرسا، كما ركبوه جملا، وسروا ثقيلا، وسروا رملا فوافى الفريقان إلى مايعرف بالعسيلة، سبق الفرنج إلى مورده والسابق إلى الماء محاصر للمسبوق، ووردوا أزرقه فتعصب أرزقهم فظن المؤمن أن الكافر مرزوق، واشتد بالمسلمين العطش، ثم ثابوا إلى الفرنج بقوة انجاد السماء بالماء فلم ينج من الفرنج الا رجلان احدهما الدليل، والثاني الدليل، وعاد المسلمون برؤوس عدوهم في رؤوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها، بأرواحهم في رؤوس الظبا وقد أطفأوا بها ثمراتها».

ثم قال: « ويثني الخادم بذكر ما امتثله من الأوامر العلية في إغماد سيف مجرده من استدعى تجرده، ومورده من عرض له وريده» ثم ذكر تسلمه حلب» وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لاغير، وثغور المسلمين لها الرعاية ولاضير، لانختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها، لامتحاشدة بعثوها ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولاأساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتل في اللقاء إلا العدة، فعوض عماد الدين من بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والرقه وسروج، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها فلا يطوى منشورها، وأجاب

الخادم عماد الدين إلى ماسأل فيه من ان يصلح المواصلة مهما استقاموا
لعهاد الدين لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخا، ولم يطمئن إلى مجاورتهم
إلى أن يضرب بينه وبينهم من عنايته برزخا، فليلح الآن عذرا لأجنبي إذا
لم يثق، ولتكن هذه نصيحة من عوتب في شكره بحسن الظن فلم يفق،
ومن شرطه على المواصلة المعونة بعسكرهم في غزواته، والخروج من المظالم
فما زاد على ان قال: سالموا مسلما، وحاربوا كافرا، واسكنوا لتكون الرعية
ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهرا، وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في
سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد
الخادم من البلاد اذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه
لا يقاتل لعيش ألبين من عيش، ولا للغضب يملأ العيان من نزق ولا طيش،
ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النية
التي هي خير ما يسطر في الصحيفة ويرقم، وكتب الخادم هذه الخدمة
بعد أن بات بحلب ليلة، وخرج منها إلى حارم، وكانت استحضفت
مملوكا لا يملكه دين ولا عقل غرّا ما هذبه نفس ولا أهل، فاعتقد ان
يسلمها إلى صاحب أنطاكية، يسر الله فتحها، اعتقادا صرح بفعله،
وشهره بكتبه ورسله، وواطأ على ذلك نفرا من رجال يعرفون بالشمسية،
لا يعرفون خالقا إلا من عرفوه رازقا، ولا يسجدون إلا لمن يرونه في نهر
النهار سابحا، وفي بحر الظلام غارقا، فشر به من فيها من الأجناد
المسلمين فشرده ومن تابعه على فعله، وظفر به المملوك عمر بن أخيه في
ضواحي البلد فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها فتسلمها
ورتب بها حامية ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف، بل إنها للعقد
واسطة، والخادم كما طالع بماضيه الذي حازه الأمس المذكور، يطالع
بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهب للخروج
نحو الكفار لاتسأم رايته النصب، ولا جهة سيره الرفع ولا جيشه الجر،
ولا يصغي إلى قول خاطر الراحة المفند: لاتنفروا في الحر، ولا يجيب دعوة
الفراش المهدد، ولا يعرج على الظل الممدد، ولادمية القصر المشيد،

ولا يعطف على ربحانه فؤاد يفارقه حولا ويلقاه يوما، ولا يقيم على زهرة ولد استهل فمتى ذكره الفطر على راحته قال: (إني نذرت للرحمن صوما) (٢٧).

ومن كتاب آخر انفضه من نصيين سنة ثمان وسبعين إلى بغداد: «سبيل الخادم أن يبني ولا يهدم، ويوفر جانبه ولا يثلم، وان يفرق بينه وبين من يمسكون أئنة الجياد المسومة ولا يطلقونها، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها، فقد علم ان الخادم بيوت أمواله في بيوت رجاله، وأن مواطن نزوله في مواقف نزاله، ومضارب خيامه أكنة ظلاله، وأنه لا يذخر من الدنيا الا شكته، ولا ينال من العيش الا مسكته، وعدو الاسلام شديد على الاسلام كلبه، مضطرم على أهله لهبه، زجل اذا أصغت اسماع التأمل لجهه، ولو أن أحد من يدعي الملك ميراثا، ويعد البلاد له ترانا دفع إلى مدافعه هذا العدو الكافر، وإلى منافرة هذا الفريق النافر لعرفته الأيام ماهو جاهله، ولقلدته الحرب ماهوقاتله، ولحملته الأحوال ماتجوز تحته محابله».

وفي كتاب آخر: «واذا أولاه أمير المؤمنين ثغرا لم بيت في وسطه وأصبح في طرفه، واذا سوغه بلدا هجر في ظل خيمه، ولم يقيم في ظل غرفه، واذا بات بات بسيف له ضجيعا، وإذا أصبح أصبح ومعترك القتال له ربيعا، لا كالذين يغبون أبواب الخلافة أغباب الاستبداد، ولا يؤامرونها في تصرفاتهم مؤامرة الاستعباد، وكأن الدنيا لهم اقطاع لا ايداع وكان الامارة لهم تخليد لا تقليد، وكان السلاح عندهم زينة لحامله ولا بسه، وكان مال الخلق عندهم وديعة فلا عذر عندهم لمناعه ولا لحابسه، وكأنهم في البيوت دمي مصورة في لزوم جذرها، لافي مستحسنات صورها، راضين من الدين بالعروة اللقية، ومن أعلى كلمته بها يسمعون على الدرجات الخشبية، ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المهلية، ومن قتال الكفاز بأنه فرض كفاية تقوم به

طائفة فيسقط عن الأخرى في أخراها، ومن طاعة الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سبها، فلا يقنعون بأنهم لا يجاهدون، إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغرو، وبأنهم لا يساعدون المسلمين إلى ان يساعدوا عليهم عدوهم الكافر، فقد توالوا الشيطان تليدا وطريفا، ووطنوا الاسلام وأهله وطنا عنيفا، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيها».

وقال في الكتاب: «إن المواصلة ما فزعوا إلى دار الخلافة إلا بعد أن فرعوا والا فطالما طمع أولهم كما طمعوا، وقديما دعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما اتبعوا، حتى أن الأولين منهم علموا أولياء الدولة من الأتراك ضد ما جبلت أخلاقهم عليه من عقوقها، وسنوا لهم اضاءة حقوق الله باضاعة حقوقها، فأين كان التعلق بالدار العزيزة وهم يحاصرون دار الاسلام بأحزابهم، ويرامون التاج الشريف بنشأهم ويمدون محاصرتها بالأسلحة والمنجنقات، والازواد والإقامات، ويصافون الخلفاء مصافة المواقف، ويكاشفونهم مكاشفة المخالف، ويعززون دزدار تكريت وهي من أهون بلاد الله بجور الجوار، ويجعلونها سجنا للماليك الخلافة ذوي الاقدار، ولو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة، ولكانت بلادهم له خزانة، ويرجو الخادم بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله، ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحل، وبلاد الكرج، فلو أن لهم من الاسلام جارا لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيف لاطفاء ما فيها من النار إلى أن تعلق كلمة الله العليا، وتملأ الولاية العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المتعبدة معابد، والصليب المرفوع خطبا في المواقد، والناقوس الصاهل اخرس اللهجة في المشاهد، ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى ما يجاور اكنافه، ويمد أطرافه مثل: تكريت ودقوقا والبوازيج وخوزستان وكيش وعمان، والذي وقع اعظم من الذي يتوقع، والذي طلع اكثر من الذي يتطلع، والذي رؤي أمس أكثر من الذي يسمع».

قلت: يعني أن ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التي يرجوها، وأشار بفعل المواصلة إلى ما سبق من فعل زنكي في حصار بغداد، ومساعدته للسلاجوقية على العدة في ذلك الزمان، والله أعلم.

وفي آخر كتاب فاضلي إلى حطان بن منقذ باليمن عن السلطان: «فتح الله علينا ممالك وأضافها، وبلاد أمنها بنا مما أخافها، وبلغنا غرائب صنع لا يبلغ أحد أوصافها، منها بلاد الشام بأسرها، ومملكة حلب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة بدجلتها، فمنها ما أعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره في بيكارنا، ومنها ما استمر في اليد وولاته من أوليائنا وأنصارنا، ولما لم يبق في البلاد الإسلامية إلا ما هو في يدنا أويد مطيع لنا، كان من شكر هذه النعمة أن نصره القوة، ونثني العزمة، ونحد الشوكة، ونلبس الشكة للفرنج الملاحين، فننازلهم ونقارعهم، ونخاصمهم إلى الله وننازعهم، فنظهر الأرض المقدسة من رجسهم بدمائهم إلى أن ترق السيوف للصخرة الشريفة لما مر بها من قسوة كفرهم واعتدائهم، فنحن نرجو أن نكون عين الطائفة من الأمة التي أخبر نبينا صلوات الله عليه أنها لا تزال على الحق ظاهرة، وبثواب الله وعدوه ظافره، والله تعالى يعيننا على ما يعيننا، ويلهمنا الاستجابة لدعوته إلى ما يحيينا.»

فصل

في رجوع السلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الأردن

رحل السلطان من حلب فمر على حماة، ثم حمص، ثم بعلبك، ثم دمشق.

قال القاضي ابن شداد: لم يقم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عزمًا على الغزاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرزا نحو دمشق، واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه، ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار وتعبى فيه للحرب، وسار حتى نزل القصير، فبات به وأصبح على المخاض، وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ما كان من ثقل الأقمشة والغلال والامتعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا واحرقوا ما لم يمكن أخذه، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية، فخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك، وجماعة من المماليك النورية، وجاوي مملوك أسد الدين حتى تكشفوا خبر الفرنج، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم، وقتلوا

منهم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم زهاء مائة نفر، وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاوش، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة الواقعة، وهو العاشر من جمادى الآخرة، وفي جادي عشره وصل الخبر إلى السلطان أن الفرنج قد اجتمعوا في صفورية، ورحلوا إلى الفولة وهي قرية معروفة، وكان غرضه المصاف، فلما سمع ذلك تعبى للقتال، وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم وقتل من العدو جماعة، وجرح جماعة وهم ينضم بعضهم إلى بعض يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا للمصاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين فنزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم والقتال والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف، وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين فإنهم كانوا في كثرة عظيمة، فرأى السلطان الانتزاع عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف، فرحل نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة، فنزل تحت الجبل متربحا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة فأصبح الفرنج راجعين، وعلى أعقابهم ناكسين، فرحل رحمه الله نحوهم وجرى من رمي الشباب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة، فلم يخرجوا ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطان منصورا وقد نال منهم قتلا وأسرا، وخرب عفر بلا وبيسان وزرعين وقرى عديدة فنزل الفوار وأعطى الناس دستورا، فسار من أثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظر إلى هذه المهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب، ولا الظفر بها بل كان غرضه رحمه الله عليه الاستعانة بالبلاد على الجهاد، والله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا.

وقال العماد: خرج السلطان إلى الغزو، ورابط العدو بعين الجالوت، وعبر المخاضة الحسينية تاسع جمادى الآخرة، فوصل إلى بيسان وقد أخلاها أهلها، فأطلق الناس فيها النيران ونهبوا مافيها، وكذلك فعلوا

بأبراج وقلاع غيرها، وصادفت مقدمة العساكر خيلا ورجلا للفرنج عابرين من نابلس ومقدمه ابن هنفري فقتل منهم وأسرا، وتوغل الباقون في الجبال، ووصل الخبر بأن الفرنج قد أقبلوا في ألف وخمسة مئتين، ومثله تركبلي وخمسة عشر ألف راجل، فأتاهم المسلمون وذلك على عين الجالوت، فأخذهم الرعب وخاموا عن الإقدام عليهم فخذقوا حولهم وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، وأقاموا كذلك خمسة أيام، فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم، فتنفس خناقهم، ونكصوا على أعقابهم إلى الناصرة، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى لم يخلص العدو منها شيئا وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة، وقد كانوا مدة مقامهم يتخطفهم المسلمون من كل جانب، ويرمونهم بالنبل، وينتظرون أن يحملوا أولا كما هو عادتهم فما فعلوا.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى بغداد: « لما كان بتاريخ الثامن من جمادى الأولى سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الاسلام إلى بلاد الكفر وقد تكاملت جنود الاسلام، وتعبت ميامنه ومياسره، وأخذت أهبه، وشحذت قصبه وباعوا الله ما اشتراه، ومثل لأعينهم ثوابه فكأنها تراه، وساروا تحت ليل عجاج ستر السائر تحته سرا، وأصبح الخادم وإياهم بعين الله في سبيله على ماء الأردن، وهو النهر الفاصل بين الإسلام والكفر، والمخاضة المضروب منها بسور على ذلك القطر، فخاض ذلك البحر، وذلك النهر، وأمدته نطف الحديد فإذا الماء يرمي بالشر، ويقذف بالجمر، وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير، وهو تاسع الشهر، ولما جاز المخاضة أخذ البلاد ضرب المخاض، وزلزلت أرضها فهي بالقوم ترض وللغنيمة تراض، وأخذت رجال الاسلام تنقص الأرض من أطرافها، وتقلع قلاع الجبال وتطير رؤوسها من أكنافها، فإذا البلاد قد انهزم أهلها فألحقها المسلمون مساكنها في الهزيمة، وعولوا فيها على سيوف المعاول فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة، وهذه البلاد مدن ماكان عزم قبل منها مدنيا، وعمارات ماكان أمل اليها مفضيا، بل طال ماكان

عنها مغضبا مثل بيسان وعفر بلا وزرعين وجنين، فكلها بلاد مشاهير لها قرى مغلّة، وبساتين مظلة، وأنهار مقلّة، وقلاع مطلة، وأسوار قد ضربت على جهاتها، وأحاطت بجنبتها، واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فغنم المسلمون مافيها من أقوات مختزنة، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كفرها بالنار، وعذبوها عذاب أهلها من الكفار، وقتلوا وكأن الضرام كان لها دما، وكتبوا عليها الخراب، وكان السيف كان فيها قلما، فأجلوا عن حماها حما، وتساقطت جدرها فكأنها أسارت فيها النوى لها، ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبر بأن عسكر الكافرين قد ركب من مكان مجتمعه، وزحف بلاسه ومدرعه، فركب الخادم وسوى المؤمنين في مواقف القتال، ومنازل النزال، فمن متسرع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف، ومن مثبت يمشي إلى الموت مشي العروس ساعة الزفاف، وهنالك منظر ود المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر كما هو به أمر، ولاغرو أن يصفه الخادم ليسر المخدم، لاليوصف الخادم، ومن وصف ضربة السيف فإنها وصف الضارب، ولم يصف الصارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطا عن سرجه، ومنحازا عن فجه وسالكا نهجا غير نهجه، وأحدق به راجله وهوزهاء عشرين ألف راجل، وركز صليب صلبوته فاستوى في العجز المحمول والحامل، ونزل محصورا، وخندق فكأنها أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبورا، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه، وتماشيه الروائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير ويتكرر إليه في اليوم الواحد النفير، ويبعث إليه السهم وهو في الحرب السفير، فيقبل تحية الضرب مترددة ولايردها، وتتسم إليه صفحة النصل متوددة فلا يودها، ويجتهد في استخراجها وقد رأى العزائم، ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لبغيتها».

ومن كتاب آخر إلى وزير بغداد: « أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج وجعلت ليل من وراءهم من الاسلام سكنا، وصبروا وصابروا فكأنها

كان السيف لهم أليفاً، وكان المعترك لهم وطناً، وأخذت في البلاد النار مأخذها، ونفذت فيها الغير منافذها، وثلت عروشها، وتلت غروسها، وجلت في مصبغات النيران عروسها، وأصبحت تناجي العيون ثواكلها، وتصف النوازل منازلها دماً على الأطلال مطلولة وصرعى بسيف البلاء مقتولة، وجاء العدو فأحدقت به الأبطال، واستمدوا مغاني الشكوى لتبوح ألسنتهم إذا خلوا إلى شياطينهم، فأخذوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحملة ناكلين، واتقى فارسهم براجله، وراجمهم بنابله، ولاذ سيفهم بجفنه، ولاخير في حامله، ولاذ جفنه بأطرافه خوفاً من كحله بسهم قاتله، وأقاموا محصورين لا يستطيعون ورداً ولا صدراً، ولا يجدون متقدماً ولا متأخراً، فما كان للكفر فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصراً وعرف النصل في لحن السيف، أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القلوب، فلا يقل الناس كيف.

فصل

في ولاية الملك العادل حلب وولاية تقي الدين مصر وغير

ذلك

قال العماد: وقد كان العادل نائباً بمصر، فلما فتح السلطان حلب كتب العادل إليه يطلبها منه مع أعمالها، ويدع الديار المصرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه إلى الكرك، فإنه سائر إلى فتحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين فاستصحبه السلطان معه في رجب، إلى الكرك هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله إليها غنائم وخيم على الربة، ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحاً ومساءً، وتناوب عليه الأمراء، حتى خرج شهر رجب وما حصل منه الطلب، لكن عظمت النكاية في الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار، ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمعوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان أن أمر حصره يطول فعول على الرجيل إلى دمشق، ووصل العادل إلى السلطان وهو بعد على الكرك، فجهز تقي الدين إلى الديار المصرية والياً عليها، وقوى عضده بصحبة القاضي الفاضل له، وتولى العادل حلب وأعمالها، ومنبج وجميع قلاعها، فسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملك الظاهر ونواب السلطان.

قلت: وكتب العادل إلى الفاضل يستشيريه في التعوض عن مصر بحلب، فكتب إليه الفاضل كتاباً فيه:

إنما أنت كغيث مطر
حيثما صرفه الله انصرف

والمولى أعلم، وبسياسة الدنيا أقوم، وقد تكرر الكتاب الناصري إليه بما نص عليه، وكشف له الغطاء وسنى له العطاء، وقالت له المخطوبة «هيت لك»، وأدى إليه مالك الأمر ما قد ملك، فلا زالت سعادته أنور من شمس، وأدور من فلك، ولا زال رابحاً على الدهر إن امرء خسر، وبقايا إن امرء هلك».

ومن كتاب آخر إليه: «أدام الله دولة حامي الحمى، وثبت الدولة الناصرية التي يقوم بها ملكان همامان هما: صلاح يمنع فسادا، وهذا سيف يحقن دما».

قال ابن أبي طي: كان السلطان يعظم الملك العادل، ويعمل برأيه في جميع أموره، ويتيمن بمشورته، ولا يعلم بأنه أشار على السلطان بأمر فخالفه، حدثني قاضي اليمن جمال الدين قال: كان السلطان يجمع الأمراء للمشورة فإن كان العادل حاضراً سمع من رأيه وإن لم يكن حاضراً لم يقطع أمراً في المهمات حتى يكاتبه بجلية الأحوال ثم يسمع رأيه فيها، وقال: وحدثني أبي قال: حدثني جماعة قالوا: كان السلطان ليس له غناء عن العادل ولا عن رأيه، فلما حصل العادل بمصر وبعد عن السلطان هناك صار السلطان يتكلف في مكاتبته بالأخبار، ويؤخر الأمور، إلى أن يرد عليه جوابه فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد، فلما حصر الكرك في هذه السنة كاتبه بالحضور إليه بعياله وأمواله وجميع أصحابه، وولى مصر تقي الدين، ولما حصل العادل عند السلطان وقع في نفسه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في ولاية يوليه إياها.

قال: وحدثني علم الدين قيصر الصلاحي قال: إنما أقدم السلطان

العادل من مصر لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، ولهذا خرج العادل بأمواله وعياله وأثقاله، قال: وحدثني غيره قال: لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلاً وقال أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال السمع والطاعة، ثم قام وخرج من عنده وكتب إليه يقول أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك وأشتهي أن أحمل هذا المال إلى خدمة السلطان ويكون عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها، فأجابته السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلا لأوليك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ماعندي، فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً، والمال علي له، فاعتذر العادل إلى السلطان، ولما اجتمعوا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم، أو ما علمت أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء، ثم قرر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها إلى ربعان إلى الفرات إلى حماة، واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعود إلى حلب وتسليمها إلى عمه العادل، ففعل وعاد إلى دمشق، وسار العادل إلى حلب فالتقى بالرستن وباتافيه، فكانت ولاية الظاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده، والتقرب إليه إلا أن الانكسار للخروج حلب عنه ظاهر عليه، وهو مع ذلك لا يظهر شيئاً إلا الطاعة لوالده، والانتقاد إلى مرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخشاب قال: حدثني الملك الظاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى علي ما قدم وما حدث وأصابني من الهم ما لم أقدر على النهوض به، ووددت أني لم

أكن رأيتها، ولادخلت إليها لأن قلبي أحبها وقبلها وطاب لي هواؤها،
ولما فارقتها كنت أحن إليها واشتاقها.

قال: ودخل العادل حلب في رمضان وخلع على المقدمين والأعيان،
وكان قد قدم بين يديه كاتبه المعروف بالصنيعة لتسلم حلب وقلعتها،
من الملك الظاهر، وولى القلعة صارم الدين بزغش، وولى الديوان
والاقتاعات شجاع الدين بن البيضاوي صباغ ذقنه، وولى الانشاء
وما يتعلق بأمور السر للصنيعة ابن النحال، وكان نصرانيا ثم أسلم على
يد العادل، فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى، وفي ذلك
يقول الشاعر:

فأقدين المسيح في دولة العا

دل حتى على أعلى الأديان

ذا أمير وذا وزير وذا و

ل وذا مشرف على السديان

قال: ولم ينزل الملك العادل يهذب أمور حلب إلى سادس عشري ذي
القعدة، ثم خرج متوجها إلى دمشق بسبب أن السلطان اجتمع عنده في
ذي القعدة عدة رسل، منهم رسل الخليفة، ورسول طغرل بن البهلوان
ورسل قزل أخي البهلوان، ورسول شاه أرمن صاحب خلاط، ورسول
المواصلة، ورسول عماد الدين صاحب سنجار، ورسول قليج ارسلان
صاحب الشمال، فأراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل، ولحضور
الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصل العادل الى دمشق احضره
السلطان لسماع الرسائل وسمع ما عنده في الأجوبة، ولما قضى أجوبة
الرسول ودع السلطان وعاد الى حلب.

قال: ولما بلغ سيف الاسلام أن السلطان كتب لتقي الدين عهدا
بولاية مصر عتب لأجل ذلك، فكتب السلطان له عهدا ببلاد اليمن

جميعها، قال: وأقطع السلطان تقي الدين الاسكندرية ودمياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش، ثم عوضه عن بوش سمونود وحواف دميسس وذكر غير ذلك.

قال العماد: أنعم السلطان على تقي الدين بالأعمال الفيومية، وسائر نواحيها بجميع جهاتها وحواليها، وزاده القبيبات وبوش، وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها، ولما وصل تقي الدين إلى مصر اقتدى بالتدبير الفاضلي، وكان السلطان لا يؤثر مفارقتة فلما لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بدأ، وكانت فيه حدة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه إلى ندبة الأجل الفاضل.

قال القاضي ابن شداد: وقتل على الكرك في هذه الكرة شرف الدين بزغش النوري شهيدا رحمه الله، ثم رحل السلطان عنها مستصحبا أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشق في رابع عشري شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان، فسار في ذلك اليوم نحوها فوصلها وصعد القلعة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان، وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكوج يدبر أمره، وابن العميد في البلد، وكان الظاهر أحب أولاده إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمات والشغف بالملك وظهور ذلك عليه، وكان من أبر الناس بوالده وأطوعهم له، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها، فخرج من حلب لما دخلها عمه العادل ويازكوج سائرين إلى خدمة السلطان، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشري شوال، فأقام في خدمة والده لا يظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده. قال وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل، وكنا قد ترسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولا وشفيعا إلى السلطان، فسيره معنا من بغداد، وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر

البلاد، وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام قال: وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين، وكان بينهما صحبة من الصبا، وكنت مع القوم، وسرنا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ، ونحن في خدمته وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في تلك الدفعة، وخرجنا راجعين إلى الموصل، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصير، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل، فلم يتفق وكان الوقوف من جانب محيي الدين فإن السلطان اشترط أن يكون صاحب إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتفاء إليه أو إلى صاحب الموصل، فقال محيي الدين: لا بد من ذكرهما في النسخة، فوقف الحال، وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة.

قال: وفي تلك الدفعة عرض علي السلطان مواضع البهاء بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال توقف الحال علي ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له، وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب، فوصله رسول سنجرشاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه، وانتمى إليه، ورسل إربل وحلف لهم وساروا، ووصل إليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحجة فأقام عنده وعيد، وعاد إلى حلب.

قال العماد: وصلت رسل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، ورسل صاحب إربل زين الدين يوسف بن علي كوجك بن بكتكين، ورسل صاحب الحديثة وتكريت يشكون من صاحب الموصل، ويطلبون أن يكونوا من أولياء السلطان المنتمين إليه، ففعل السلطان ذلك، وكان أبو سنجرشاه سيف الدين غازي هو صاحب الموصل بعد والده مودود كما تقدم ذكره، فعهد إلى ابنه سنجر شاه بها فغلبه عليها عمه عز الدين مسعود بن مودود،

فبقيت الجزيرة بيد سنجر شاه وهو من تحت يد عمه، وفي قلبه منه مافيه، وكانت إربل وأعمالها ومايلها كلها، مضافة إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثم طلب هو الانحياز إلى خدمة السلطان فأجابته، وسمع بذلك صاحب الموصل، فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السلطان أن يجدد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جملة الأعوان، حربا لمن حاربه، سلما لمن سالمه، وجاء رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وترفع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال أنا أقضي حاجته على ما أورد ولكن قد سبق مني يمين لأولئك السلاطين فأنا استثنيتهم وأردتهم إلى اختيارهم لي أو له فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصداقة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم، فعظم ذلك على السلطان، وكان ذلك محركا له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرسل على ذلك غير ظافرين بطائل، وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيع، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته فدفعه في المقبرة المحاذية للرباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الأمطار، وكثرت مكاتبات
العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتا منها:
عذر الزمان بأي وجه يقبل
ومحبكم بالصدفة يقتل
مالي سوى انسان عيني مسعدا
بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليل كله في ناظري
لاصبح إلا وجهك المتهلل
خير تميم بين المنيّة والمنى
لاتهجروا فال موت عندي أسهل
يا غائبين وهم بفكري حضر
يارا حلين وهم بقلبي نزل
ماللسلوا إلى فؤادي منهج
ماللصباية غير قلبي منهل
لا تعدلوا عني فمالي معدل
عنكم وليس سواكم لي موئل
كل الخطوب دفعتهما بتجلدي
إلا التفرق فهو خطب معضل
ان لم يجدني طيفك م في زورة
فلأنني منه أدق وأنحل
لاصبري لا قلب لي لاغمض لي
لاعلم لي بالبين ما اذا أفعل

قال ابن الأثير: وفي جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين قبض عز
الدين أتابك على مجاهد الدين قايازا، وهو حينئذ نائبه في بلاده، واتبع في

ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه، ولم ينظر في مضرة صاحبه، وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلفندار، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف وهما من أكابر الأمراء، فلما قبضه كان بيده إربل، وشهرزور ودقوقا، وجزيرة ابن عمر، وكان بها معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين صغيرا، والحكم فيها إلى مجاهد الدين، ولهم أيضا قلعة العقر، فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين علي بإربل، وكان فيها لاحكم له مع مجاهد الدين، وامتنع معز الدين بالجزيرة، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرياً حصر دقوقا فملكها، ولم يحصل لعز الدين إلا شهرزور، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل، وبقي مقبوضاً، فأخرجه وأعادته إلى ولاية قلعة الموصل إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يعد إلى طاعته، وقبض عز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قال ابن الأثير: وعلى الحقيقة ليس على الدول شيء أضر من إزالة مدبر لها وإقامة غيره، فإن الأول يكون كالطبيب الخاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه، فإلى ان يعرف حاله يفسد أكثر مما ينصلح.

قال ابن القادسي: وفي هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الأبله الشاعر وهو من أسماء الأضداد، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله، وكان فصيحاً هجاء وله أشعار رقيقة منها:

زار من أحباب زورته
والدجى في لون طرته
بالحام من زورة قصرت
فأماتت طول جفوتته

ثم دخلت

سنة ثمانين

قال العماد: وقد تقرص البرد، فلما طاب الزمان تجهز السلطان بالعساكر المنصورة إلى الكرك مرة أخرى وأرسل إلى تقي الدين فجاء بالعساكر المصرية، والأجل الفاضل، وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وآمد وصاحب دارا وأخو صاحب سنجار وعسكر ماردين، فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العود، وأمر العادل بالاقامة معه.

وقال القاضي ابن شداد: سير السلطان إلى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما، وأصعده القلعة وباسطه، ورحل معه طالبا دمشق، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله تعالى، ولما بلغه وصول ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه وكان رحمه الله يكارم الناس مكارمة عظيمة، فالتقاه على عين الجر بالبقياع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل، فتأهب للغزاة وخرج مبرزا إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق فأقاما بها أياما، ثم رحلوا يلتحقون بالسلطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالبا للكرك، فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقي الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه فسيرهم إليه، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك في رابع عشر جمادى الأولى، وركب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية، ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى

الذب عن الكرك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قصد مصر، بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة، فاهتم السلطان بأمره لتكون الطريق سابلة، ويسر الله ذلك وله الحمد والمنة، ولكن كان فتحه بعد ذلك، ولما بلغ السلطان خبر خروج الفرنج تعباً للقتال، وأمر العساكر ان تخرج إلى ظهر الكرك، وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة، ثم سار السلطان يقصد العدو، وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له السواله، وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسابان قبالة الفرنج في طريقهم، ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين والفرنج مقيمون بالسواله إلى السادس والعشرين من جمادى الآخرة، ثم رحلوا قاصدين الكرك، فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم إلى آخر النهار، ولما رأى رحمه الله تصميم الفرنج على الكرك أمر العسكر أن يدخل الساحل لخلوه عن العساكر، فهاجموا على نابلس ونهبوها وغنموا مافيها، ولم يبق فيها إلا حصاها، وأخذوا جينين، والتحقوا بالسلطان برأس الماء.

قلت: وقد وصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال: « هو شجا في الحناجر وقذا في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقتها، وقعد بارصاد العزائم وطرقها، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج، وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين:
مامـريـوم إلا وعندهما

لحم رجال أويولغان دما

وفي كتاب آخر: « وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجر، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجة، وكل جوانبها وعرة المرتقى، صعبة المختطاه،

والسلطان يستعذب المشقات التي تتفادى منها الهمم، ويباشر جمرات الشتاء الكالج بوجهه المبتسم».

ومن كتاب آخر: «وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأعلاج، فرمت الشرارييف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أخرج أحد منهم رأسا إلا دخل في عينه نصل، وما هجر قراب الاسلام سيف إلا وله مع رقاب الكفر غمد قطعها وصل، وما على الحجر في الاسراف والتبذير حجر، ولكل ليلة من نقع الخوافر ومن سنا الأسننة فجر، ولقد أخذنا من العدو بالمخنق، وشرعنا في طم الخندق، والحائط واقع، والواقعة بهم محيطة، والدروع بالسيوف مفصلة وبالجروح محيطة».

ومن كتاب آخر: «عذاب الله بالحصن وأمله واقع، ماله من دافع، وإن دليل النصر قد ظهر، وما دونه من مانع، وأما المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك، فلم تبق لها الحجارة الطائرة إليها حجارة قائمة، وإن لها من إمطارها عليها ليلا ونهار ديمة دائمة، وأطفنا عليها بالزرجون حتى وقعت الأسوار من سكرها، وضرينا دونها الستائر حتى ترنمت لصخرها، وعاطتها كفة المنجنيق عقار عقرها، فالسوار المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدت قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو واد من الأودية واسع عميق لما تعذر إلى الزحف إليهم والهجم عليهم طريق».

ومن كتاب آخر: «الحصن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة، قد هدت الحجارة منه ما أحكموه بالحجارة، وعدا عليه بالتخريب ما أعدوه للعمارة، بقسي المنجنيقات ترمى ولا تريم سهامها، وتستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها، فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان قد أتى التخريب على ما فيه من

العمران، فلم يبق إلا طم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، والقلوب واثقة بحصول الفتح، وقد علم كل واحد منا ان متجره قد فاز بالريح، فما يسمع منا بحمد الله من أحد ملل ولاضجر ولاتسفر هذه النوبة إن شاء الله تعالى إلا عن نصر وظفر».

وقال العماد: رحل السلطان من رأس الماء على طريق الظليل والزرقا وعمان والبلقا، ثم الرقيم وزيزا والنقوب واللجون، ثم أدر ثم الربة وذلك في بلد مآب، فلما تلاحقت العساكر نزل على وادي الكرك، ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب، فهدمت السور المقابل لها، ولم يبق مانع إلا الخندق الواسع العميق، وهو من الأودية الهائلة، والمهاوي الحائلة والمهالك الغائرة الهائلة، ولم يكن في الرأي إلا طمه، وملؤه بكل ممكن وردمه، فعد ذلك من الأمور الصعاب وتعذر لحزونة الأرض وتحجرها حفر الأسراب، فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الاخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الربض إلى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرهما وتأليفها، فتمت دروبا واسعة لا يزحم فيها الجاني الذاهب، وتوافدت رجال العسكر واتباعه وغلمانة وأشياعه على نقل مايرمى في الخندق، وهان طم الخندق بالدبابات التي قدمت والأسراب التي بنيت وأحكمت، فوجد الناس إلى الخندق طريقا مهيعا فهم يزدحمون أمين من الجراح عاملين بالشراح والناس تحت القلعة على شفير الخندق لا يستشعرون حذرا ولايخشون سهما ولاحجرا، وقد امتلأ الخندق حتى أن أسيرا مقيدا رمى بنفسه إليه، ونجا بعدما توالى من رمي الفرنج رمي الحجارة عليه».

وفي بعض الكتب العمادية: «لولا الخندق المانع من الارادة، وانه ليس من الخنادق المعتادة، بل هو واد من الأودية، واسع الأفنية لسهل المشرع وهجم الموضع، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، فعملنا دبابات قدمناها، وبنينا إلى شفير الخندق

ثلاثة أسراب باللبن سقناها وأحكمنها، فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنه، وشرع الناس في طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنة، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى، وقد تسنى طمه وتها ردمه، وتسارع الناس إليه، وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولا كبير إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نجح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهارا كازدحامهم في المصلى يوم العيد، وليلا كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف السعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبالنصر موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع، والحصن ومن فيه صريع، قد خرقت الحجارة حجابها، وقطعت بهم أسبابها، وناولته من الأجل كتابه وحسرت لثام سوره وحلت نقابه، فأناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشرفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة، وحرور العوامل مهموزة، وبطنون السقوف مقبورة، وأعضاء الاساقف معقورة، ووجوه الجدر مسلوخة، وجلود البواشير مبشورة، والنصر أشهر من نار على علم، والحرب أقوم من ساق على قدم.

قال: وأشرف السلطان على أخذها، فوصل الخبر أن الفرنج قد تجمعوا وجاءوا منجدين لأهل الكرك ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عنان العزم إليهم، وكانوا في منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسلك، فانتظر السلطان أن يخرجوا إلى البلقاء، وتقدم عنهم بأميال فرجعوا وتفرقوا ولم يقدموا، وعلى قصد الكرك عزموا، ولما رأى السلطان أن الفرصة من الفتتين فاتت، مر على نابلس فأغار وغنم وفي طريق عوده نزل على سبسطية، وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذ الفرنج كنيسة، وأودعوها أمتعة نفيسة، وبها من الفرنج أسقف وقسس ورهبان ففدوها بأسارى مسلمين، ولادوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جينين فأهبط أوجها، وهدم برجها، وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصفايا، واجتمع بأصحابه على الفوار، وتحدث بالايجاد لحوادث الغور في الغوار.

فصل

ثم رحل السلطان إلى دمشق للاجتماع برسول الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا ومات جماعة من أصحابهم، وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل يوم وليلة في الرباط بالمنيع، واستأذنوا في العود قبل الشفاء فضاقت الصدور بصدور ذلك الصدر على تلك الحالة، وعجزت تلك العثرة كما شاء الله عن الإقالة، ثم استقل مودعا وداع الأبد، وكان حسام الدين طمان مقدم عسكر سنجار مع السلطان حاضرا في الجهاد، فأذن له في العود وأمره بمرافقة صدر الدين والرسول معه والرفق بهم في مسيرهم، فساروا على سمت الرحبة، فاغتم الأمير طمان بركة تلك الصحبة، فأدركت المنية شهاب الدين بشير بالسخنة، ووصلوا بشيخ الشيوخ إلى الرحبة، وهناك لقي ربه.

قال: ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده، والوفاق لعقده، مشيم الكرم، كريم الشيم، صالح العمل، ناجح الأمل، مفارقا للعالم في حياته، مقبلا على الآخرة قبل وفاته، فهو ممن رفعت سريرته الملائك ووضعت له في عليين الأرائك، وكانت وفاته في شعبان بواه الله الجنان.

قلت: كان صدر الدين هذا أحد السادة، وأبوه وجده من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزمان، وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، وقد ذكرت ترجمة والده في تاريخ دمشق وأحقتها من أخبار جده بما ذكره أبو سعد السمعي في تاريخه.

وقال ابن القادسي: توفي صدر الدين في رجب برحبة مالك بن طوق، ودفن في قبة الى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة
الرحبـي، وكـان

مولده في ذي الحجة سنة ثمان وخمسمائة، وكان شيخا طائلا في العلم والدين والسداد ثابت الجنان في الحوادث المزعجة، والوقائع الباغثة الملجلجة، سديد البديهة صافي الفكرة جمع بين نظم الشعر ونثر الترسيل، وكان يرسل إلى الأطراف، ورتب في مشيخة الشيوخ منذ توفي والده في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرباط صفى الدين اسماعيل، ومن شعره يعني صدر الدين:

ولم أخضب مشيبي وهوزين
لايثاري جهالات التصابي
ولكن كي يراني من أعادي
فأرهبه بوثبات الشباب

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي إليه جوابا عن كتاب عتب فيه: «وقف على التحية الطيبة والكرامة الصيبة، والالفاظ العذاب إلا انها الغضاب، والنعيم إلا أنه العذاب، والمساحة إلا أنها الحساب، والمتشابهات اللواتي أولها أحسن تأويلها، والمحكمات اللاتي هن أم الكتاب، ويكفي أنه مزج الصاب بعسله، وأرغف قلمه بما لا يعرفه الشجاع من أنوف أسله، وهذا باب قد آن سده، وسييل قد وجب صده، وعين دهر أصابت هذه المودة، وقد آن لها أن تنطرف وتنصرف، وبادرة هم قد حان أن تنكشف وتنكسف، فلا نظر بعدها للعين التي أصابت ولاخطرت في أثرها للخطرة التي آبت، ولا كان للأيام في فضل سيدنا على عبده نصيب، ولاعد أبدا على شباب الرضى عنه مشيب، ولا تمكن من حبيب وده إلى القلب رقيب، ولاملك رقه غير تلك اليد الكريمة، ولاسمعت حديث الحوادث تلك المودة القديمة».

قال العماد: وخرجنا من دمشق في شعبان، وخيمنا على سعسع، ودعا تقي الدين فأمره أن يرجع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصف الشهر،

ثم رجعنا من فرض الجهاد إلى فرض الصيام بدمشق، ورجع كل عسكر إلى مركزه، ومدح العهاد تقي الدين في هذه الكرة بقصيدة ثائية نحو خمسة وثمانين بيتاً أولها:

إذا اشتتما عن غير قلبي تحدثنا
فما حل فيه الهم إلا ليبتثا
خذاشاهدي صدقي على صحة الهوى
ضنا ساكتا مني ووجدنا تحدثنا
مريضكما أشفى على الناس سقمه
فلا تعجلا في أمره وتبريثا
رثى لي عدوي من جفاء أحبتي
ناهيك من حال عدوي لها رثى
عهدكم بعد النوى ما تشعثت
وحاشى لذلك العهد أن يتشعثا

ومنها:

وأملك بالملك المظفر ظافرا
من الجد والجدوى قديما ومحدثا
مخوف السطأ صعب الأبا حسن الثنا
مرجى الندى سهل الرضى طيب الثنا
صفا آخر العمرين من عمر الذي
به العمران اليوم بالعدل ثلثا
هم أحدثوا مع الضلالة بالهدى
فمذمكوا لم تلق في الدين محدثا
غشائي وغشي أنت حامل نقصه
بفضلك إن البحر يحتمل الغشا

ومنها في وصف القصيدة:

وقد سهلت والثاء أو عمر مرتقى
فلا فرق عندي بين تاء وبين ثا